أصــوات

مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

اصوات
سليمان فياض

لوحة الغلاف
للفنان جمال قطب

تصميم الغلاف
الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

على سبيل التقديم...

لأن المعرفة اهم من الثروة واهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية اطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الاسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كاضخم مشروع نشر لروائع الادب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وايضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الامة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما انتجته عبقرية هذه الامة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من اهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق باسعار رمزية اثبتت التجربة ان الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على ان ياخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

●● ترجمت رواية «أصوات» إلى هذه اللغات :

● الفرنسية : ١٩٩٠ وصدرت عن دار «دنويل» بباريس، وأعيد طبعها في طبعة شعبية بعنوان : CLAMEURS.

● الإنجليزية : ١٩٩١ وصدرت عن دار «ماريون بايورز» في كل من لندن ونيويورك بعنوان : VOICES.

● الألمانية : ١٩٩٢ وصدرت عن دار « كناور» بميونخ في طبعة شعبية بعنوان : Heimkehr einer Fremden.

● الإيطالية : ١٩٩٥ وصدرت عن دار سيليريو في باليرمو بعنوان : VOCI.

● الكردية : ١٩٧٤ ـ العراق

●● رشحت هذه الرواية لنيل جائزة «فيمينا الفرنسية».

●● والرواية تترجم الآن إلى الإسبانية ، واليونانية، والدانماركية.

١ - عـــودة الغائـــب

المــأمور :

كانت الساعة العاشرة تماماً . جلست إلى مكتبى ، وفككت أزرار سترتى العلوية لأجفف عرق ، وأخفف من شعورى بالرطوبة والاختناق . جاءنى العسكرى بقهوة الصباح ، فرحت أشربها على مهل ، وعيناى تجوسان فى صحيفتى اليومية المفضلة . ثم تصفحت تقارير الضابط المعاون عن حوادث أمس . لم أجد فيها شيئاً يستحق الاهتمام . الحوادث والجرائم المعتادة كل يوم ، والتى ألفتهـا ، وأصبحت لا تثير فى أية دهشة . طويت الملف ، وأسندت خدى إلى قبضة يدى ، ومرفقى إلى مسند المقعد ، وشردت خواطرى فى أشياء كثيرة غير محددة .

فتح العسكرى الباب ، دفعه ، ودق قدما بالأخرى . لم يكن البريد قد حان موعده بعد ، لكنه قدم لى مظروفا ، بدا لى ، من شكله ومن لقبى الوظيفى المكتوب تحت مستطيل من السلوفان فى غلافه ، أنه برقية . شعرت فجأة بالاهتمام . وتوقعت خطراً ما ، أترقبه دائماً عندما أرى أية برقية . تصنعت الرزانة ، وأشرت إلى العسكرى فانصرف ، وفضضت الغلاف بلهفة . وشعرت فى الحال بدهشة بالغة ، أحسست معها أننى أستيقظ الآن فقط من نوم طويل . كانت البرقية قادمة من أوربا ، من باريس بالتحديد . تأكدت من الغلاف ثانية أنها حقاً مرسلة إلى أنا ، ولم تأتنى على سبيل الخطأ . جرفنى فضول حاد لمعرفة ما بها . كانت فيها هذه الكلمات :

« سيدى المأمور : أرجو أن تساعدنى فى البحث عن أهلى . من بقى منهم على قيد الحياة . لقد غادرت قريتى : « الدراويش » منذ ثلاثين عاماً ، وعمرى عشرة أعوام . وفتح الله على منذ سنوات ، فصرت من أغنياء باريس . وأشعر الآن بالحنين العميق إلى رؤية أهلى وبلدى ، ومد يد العون إليهم ما وسعتنى القدرة . اسمى « حامد مصطفى الهجيرى » ولن تعدم من يعرف عائلتى فى الدراويش .

وأرجوك أن تخبرنى ببرقية على عنوانى المذكور أدناه ، بكل ما ينبغى أن أعرفه الآن . وبرقيتكم المنتظرة إلى، سأقوم بدفع تكاليفها وآمل، حين نلتقى ، أن نصبح صديقين » .

كانت البرقية مرسلة . كما تقول التواريخ التى تحملها ، منذ أسبوع ، من باريس . وأبلغت إلى القاهرة فى نفس اليوم . وقدرت أن مواطنى الناجح الفنى يقتله القلق الآن ، وربما يساوره اليأس . ومن عادتى ألا أهتم بمثل هذه المشاعر لدى الآخرين ، خارج دائرتى الخاصة ،وعلاقاتى الشخصية. ولكن المسألة بدت هامة لى، وعاجلة. فحامد مصطفى البحيرى ليس الآن شخصاً عادياً ، وهو لا يقل جدارة باهتمامى عن أى مواطن ، له من الحيثية ما يثير من حوله ، ومن أجله ، كل اهتماماتى ، بحكم منصبى كمسئول عن الأمن . لذلك قفزت من مقعدى ، وبدأت أهتم شخصياً بهذه المسألة النادرة الحدوث ، والتى ينبغى أن تكون لى فيها اليد الطولى ، فى تحقيق أمنية إنسان غير عادى ، والوصول بها إلى خاتمة سعيدة ، لاشك أنها ستعود على أيضاً بالخير . لم أكلف أحدا سواى بهذه المسألة ، ولم أرسل من يطلب عمدة الدراويش لسؤاله ، وأخذ المعلومات منه أمرت العسكرى بإعداد سيارتى الحكومية الخاصة . وصحبته معنا إلى الدراويش . فطار بنا السائق اليها ، برغم وعورة الطريق .

محمد بن الملسى :

فجأة ، وعلى غير موعد ، اختل الكون فى أعيننا ، وعقولنا . حدثت ضربة قدر مفاجئة ، قادمة من المجهول ، من عالم الغيب الذى لا تدركه أبصارنا ، ولا ترقى إليه عقولنا . الشمس لم تزل تشرق ، وتغرب أيضا ، فى موعدها . النجوم لم تزل تبزغ فى الليل نجمة إثر نجمة . والطيور ترفرف بأجنحتهامع الشروق والغروب. وهامات الأشجار ، والنباتات ، تهتز من حولنا ، مع كل هبة نسمة. أطفال جدد قد ولدوا صباح اليوم ، وآخرون قد ماتوا ، فى قريتنا ، والقرى القريبة حولنا، التى نعرفها (من السيالة إلى كفر الهان)، ومن كافة

الأعمار ، ومن الجنسين : الخشن واللطيف . وكل شيء يحدث كما هو : مياه الغسيل والاستحمام تسكب فى الأزقة والحارات ، محملة بذوب الصابون والعرق ، جالبة فى أثرها الذباب ، ومناقير البط والأوز والدجاج . الحمير تنهق ، والكلاب تنبح ، والبهائم تزعق طلبا للطعام ، كالأطفال الذين يخوضون فى برك المياه الضحلة ، المتبقية من أجساد آبائهم وأمهاتهم ، اللواتى يفلين شعور البنات فوق الأسطح ، وأمام الدور ، يمشطنها بالجاز ، وأمشاط المظم السوداء والبيضاء . ومؤذن المسجد ينادى المصلين إلى جامعه المظلم ، القديم الرائحة ، مع كل بداية رحلة جديدة ، لحركات الشمس الأربع ، فى سماء قريتنا ، ثم مع بزوغ نجمة مجهولة ، إيذانا برحلة الظلام ، والنوم ، والجنس ، والأحلام . والنسوة ينزعن ثياب الليل المنقوشة والملونة ، ويرتدين ثياب النهار السوداء ، ويغطين رؤوسهن وأعناقهن بطرح خفيفة السواد .

كل شيء يحدث كما هو ، كما كان . وكل شيء كان من قبل هذه المفاجأة التى انقضت على قريتنا ، على غير موعد ، يبدو طبيعيا فى أعيننا ، ومألوفا لعقولنا . هذه هى الحياة ولا حياة غيرها ، وألفتنا بما فيها من موت ، وحياة ، وضحكات الصحة ، وأنات المرض ، وابتسامات الغافلين ، وعبوس المهمومين . أما الآن ، وقبل أن يحدث شيء مادى

ملموس، يمسك باليد، ويرى بالعين، فقد أخذت عيوننا ترى ذلك الشيء الجديد الوافد، المثير للدهشة، يسقط على قريتنا من حالق، ونقع تحت وطأته في شعور بالتخلف والعار، والترقب المبهور الأنفاس، والخوف من أن نرى أنفسنا بعيون جديدة. ومن أن يرانا آخر، ذلك الآخر القادم من عالم الغيب، الذي لم تعرفه بيننا أبدا، سوى عقول قليلة، من أبناء قريتنا الذين يقرأون الصحف. والذين تجولوا بعيون مصابة بالتراكوما وعشى الليل في كتب الجغرافيا، وصفحات الأطالس، على أدراج الفصول المدرسية بالبندر. وبدأت أعيش من الآن مع هذا الجديد الوافد، المتوقع قدومه من باريس، ونسيت معه كل احتمالات نجاحي أو فشلي في الشهادة الثانوية. فلم يعد من حديث لنا في القرية، سوى عن «حامد بن مصطفى البحيرى»، ابن قريتنا المغامر والمدهش، وصانع الأعاجيب.

كنا جالسين على مقهى الجسر، نلعب الدومينو والطاولة والورق. تمرق بجانبنا سيارات الأنوبيس والأجرة والملاكى وعربات الحنطور جنوبا وشمالا، فوق الطريق الزراعى المرصوف المشقق، الملىء بالحفر والمطبات والنظامئ إلى طبقة من الزفت، ورش المياه. وتوقف بجانبنا

فجأة ، على غير انتباه ، عامل التلغراف. وقد استنفدنا من قبل كل ما كان يمكن المس به ، من توقعات ، وخيالات وأحلام ، عن « حامد بن مصطفى البحيرى » . نزل العامل عن دراجته . وأسندها على حامل العجلة الخلفية ، ومد يداً فارغة إلى بقال قريتنا الوحيد ، الذى كان يلعب معنا الطاولة ، تاركا دكانته لولده اليافع ، وطلب جنيهاً ، من «أحمد بن مصطفى البحيرى» ، شقيق «حامد بن مصطفى البحيرى » . سخر منه أحمد ، فناوله العامل متحدياً ، برقية كانت مطبقة فى يده الأخرى .

— طيب . خذ ياعم أحمد . تلغراف ياسيدى ، من باريس .

— باريس ؟!

شهق أحمد ، ثم قالها ، ووثب كالمرتعب . بدا مذعوراً،وملهوفاً وفرحاً . خطف البرقية بلهفة . فضها . أسرعت عيناه فوق سطورها بعجز،على معرفته بقدر كاف من القراءةوالكتابة . توقف فجأة مهدداً العامل بضربه حتى الموت ، لغير سبب واضح يمكن أن نفهمه أو نخمنه ، وكنا نتصايح ونضحك بهرج بالغ : برقية ؟ من باريس ؟ ولأحمد بن مصطفى البحيرى ؟ ناولنى البرقية. فأخذت أقرؤها بصوت

مرتفع ، والكل واجم . كأننا فى حضرة للأمور ، أو فى محراب جامع :

« أمى العزيزة . أخى أحمد . أنا حى أرزق . تزوجت ، وأنجبت ولداً وبنتاً . سآتى مع زوجتى سيمون لزيارتكم ، لمدة أسبوعين فقط ، بسبب أعمالى الكثيرة هنا . أرسل لكما برقياً ألفى جنيه ، لبناء بيت على الجسر ، صالح لإقامة زوجتى الباريسية ، فى بحر أسبوعين من تاريخه . استشيرا فى ذلك مهندساً معمارياً . يمكنك يا أخى أن تستلم المبلغ فوراً ، من مكتب التلغراف . مشتاق إليكم جميعاً . وسيمون أكثر شوقاً لمعرفتكم . أعتقد أنكم سوف تحبونها كثيراً ، وأنها سوف تحبكم بدورها ، وبخاصة إذا كان مظهركم وسلوككم حسناً معها . إلى الملتقى أيها الأحبة » .

علقت بأذهاننا عبارة : « أرسل لكما ألفى جنيه » . أخذنا نردد ذلك فى عجلة . تساءل أحدنا كيف يمكن أن ترسل النقود كالتلغراف ، برقياً ، باللاسلكى . صاح عامل التلغراف طالباً جنيهاً حلاوة البرقية والمبلغ أيضاً ، خطف أحمد البرقية من يدى ، ليعبر القنطرة الصغيرة . بدا سعيدا بفرحة لاتوصف . بأخيه ، وبالألفى جنيه . بدا أنه يريد

أن يخبر أمه . صاح به عامل التلغراف طالباً حلاوته ، ولو عشرة قروش . توقف أحمد فجأة، ونظر إلى جهة المدينة ، ثم إلى الدراجة ، وعاد يجرى صوبنا هاتفاً بعامل التلغراف ، ليحمله إلى المدينة ، وكان الوقت ضحى ، ليصرف الألفى جنيه ، ربما قبل أن يكتشف أحد فى البرقية أى خطأ . احتج العامل ، فوعده بجنيه ، حين يصرف المبلغ ، وركب الدراجة خلفه . فابتعد به عامل التلغراف مسرعاً صوب الشمال ، فى اتجاه البندر . قال رجل عجوز معمر ، عجز الموت عن اختطافه مبكراً :

— حامد بن مصطفى ، سرق من ثلاثين سنة خمسة قروش، من أبيه،الله يرحمه ويحسن إليه ، ضربه المرحوم ، وطرده من البيت، من ثلاثين سنة . ولكن الولد جعلها جداً ، ولم يعد أبداً .

لكننا دون أن نتعجب لأحوال الدنيا ، ودون أن نجلس ، خطر فى ذهن كل منا شىء آخر . أن نذهب ونخبر أم حامد بالخبر . وخلت المقهى من كل الناس ، إلا القليل ممن لا يعنيهم الأمر ، أو ممن قلوبهم باردة . وتزاحمنا ونحن نعبر القنطرة مسرعين . وطوال أسبوعين ، فرضت زيارة حامد وسيمون نفسها علينا فرضاً .

احمد البحيري :

لم أكن قد رأيت لأخي وجهاً فقد ولدت بعده بعدة أعوام، كاقالت لي أمي، وكما أكدلي عواجيز القرية . ووجدت في أمي التي خرفت، وأبي الذي مات بالاستسقاء، عوضاً عن الابن الذي ضاع ، وعن الأبناء الذين ماتوا قبله وبعده . وبين يوم وآخر كانت تأتيني من أخي العزيز برقية تقول :

« ركبنا الباخرة اليوم من ميناء طولون ، في طريقنا إلى الإسكندرية أنا وزوجتي سيمون ، لكي نصحب معنا سيارتنا الخاصة » .

« وصلنا الإسكندرية اليوم ، ونحن فى طريقنا بالسيارة إلى القاهرة » .

« نحن فى الطريق إليكم بالسيارة ، وسنصل تقريباً حوالى الظهر ، غداً » .

وكان المأمور قد دعانى مع العمدة . بوساطة مخصوص ، إلى البندر ، وحملنا السائق الخصوصى للمأمور ، فى السيارة الحكومية ، وحيانا المأمور تحية بالغة العجب ، وخصوصاً فى تحيته لى . ورحنا نتحدث عما ينبغى عمله لاستقبال حامد وسيمون ، وتوفير إقامة طيبة ومريحة لهما . وشدد على المأمور ، بأنه يجب أن أحقق كل وسائل الراحة والترفيه لأخى حامد ، ولزوجته الباريسية. وقد أكد على المأمور ، بضرورة أن يكون للبيت ،الذى سيقيم فيه حامد وسيمون ، حديقة مزروعة بشجيرات الياسمين والفل والموالح ، التى يمكن خلعها من جذورها ، مع مايحيط بها من طين ، لغرسها من جديد فى الحديقة ، وكأنها قد نمت فيها منذ زمن بعيد .

وللأسف ، لم أتمكن من بناء البيت المطلوب لحامد وسيمون. المهندس المعمارى ذكر فى البداية ، أن بناء البيت لايمكن إنجازه

قبل شهرين . وحين ألححنا عليه وتوسلت إليه ، طلب كفاولة عن البيت ، مما جميعه ، مبلغاً ضخماً من المال ، بدا لي في تقديري ، مبالغاً فيه جداً ، وكان أكثر مما أرسله حامد إلي . ولم يكن أحد في الدراويش قد لجأ من قبل إلى مهندس معماري ، لبناء بيته . لذلك رأيت أنا والعمدة ، وأهل الحل والربط في الدراويش ، الاستغناء عن جهود المهندس ، وعمله أيضاً ، الذي سخر منه البناؤون القدامى في الدراويش ، وبناء البيت بجهودنا . لكن العمال الذين حاولنا الاستعانة بهم ، طلبوا أجورا مضاعفة مع أنهم من أبناء الدراويش . وربما كان ذلك منهم استغلالا لفرصة للكسب لا تعوض ، وبخاصة أمام ضيق الوقت ، وبعد أن اشتريت أرضاً أصر صاحبها على ضرورة بيعها بخمسمائة جنيه ، ولمساحة لا تزيد على خمسمائة متر .

ركبني الهم ، وبت لا أعرف النوم ، ولا أعرف لي ليلا من نهار ، استقر الرأي بحضور العمدة ومشايخ الدراويش ، وشيخ الخفراء ، والخفراء ، والأعيان ، ومعلمي المدرسة الابتدائية ، وطلبة المدرسة الثانوية في البندر ، على الاكتفاء ببيت الأسرة بعد إصلاحه

وأبلغنا قرارنا للمأمور حتى يرضى ولا يغضب . وفعلا قمت بطلاء البيت بالمصيص والزيت ، وجددت أبوابه ونوافذه ، وزودته بالشيش والزجاج ، وغطيت أرضه بالبلاط والخشب ، وزودت حمامه بالدش ، ودورة مياه افرنجية ، وثلاجة صغيرة . ووضعت خزانا فوق سطح البيت ، يملأ بموتور من مياه الطلمبة ، وتمتد منه ماسورة إلى الحمام ، ودورة المياه ، وحوض غسيل الوجه واليدين . وقام طلبة المدرسة الثانوية فى البندر ، من أبناء الدراويش ، بتعليق بعض لوحات على جدران البيت ، من رسومهم ، بعد أن أطرتها بأطر مذهبة منقوشة . وسددت منور السقف بهرم من الزجاج المصنفر ، يمكن فتح نوافذه فيه . ودقت أكثر من مسمار وعلاقة بغرف البيت وصالته . من أجل الكلوبات ومصابيح الجاز نمرة (٣٠) ، وذلك بالإضافة إلى الستائر ، والمقاعد ، وترابيزة السفرة ، والمفارش ، والملاءات والبياضات ، وفوط السفرة ، وفوط الوجه واليدين .

أجهدنى ذلك كله ، وأفلسنى . وفشلت فى أن أستبقى لنفسى شيئاً يذكر من المبلغ ، أمام كثرة المطالب ، وفى مواجهة الأوصياء ، وأصحاب العيون المفتوحة الذين أخذوا يحاسبوننى بالمليم ، بل ويتهموننى

فى وجهى ، بالسرقة والتحايل ، أو بالبخل والتقصير . صحيح إننى استفدت من هذا المبلغ لدكانتى ، كما استفدت لبيتى . لكن ذلك كان ضمن المطالب والمظاهر التى لا بد منها أمام سيمون . فقد كان ولا بد أن تظهر دكانتى لسيمون بالمظهر اللائق بها ، وبأسرة البحيرى. طليت جدران الدكانة ورفوفها بالزيت ، وجددت منضدتها الأمامية، وزجاج أدراجها ، وزخرفت الواجهة بنقوش عربية ، وهذه كلها مسائل لا بد منها . لكن المشكلة التى لم أستطع أن أتغلب عليها ، دائما ، هى مشكلة الذباب فى النهار ، والناموس فى الليل ، فكلما قتلت منه بالبخاخة أسرابا ، جاءت بعد لحظات أسراب أخرى . حتى وصلت إلى حد بالغ من السخط والضيق ، بهذه الزيارة ، وبحامد ، وسيمون ، اللذين قلبا حياة الدراويش رأساً على رجلين . لكننى ، والحق يقال ، كنت فخورا أمام أهل الدراويش بأخى ، وممتزاً برفع رأسى بينهم أكثر من العمدة نفسه ، ومعه بطانته كلها . وبينى وبين نفسى ، ولا أكتم ذلك ، أشعر بغيرة من حامد ، وأقارن بين ماله ومالى ، وحاله وحالى ، وزوجته التى لم أرها بعد وزوجتى . حتى أننى رأيت فى الحلم ، ذات ليلة ،

أنى أقتل حامد بسادة ، فبكيت حين استيقظت من نومى محتقرا نفسى ، ساخطا على مشاعر الشر الخبيثة فى قلبى . وتذكرت ما حكاه لنا إمام المسجد ، فى لحظة من لحظات تجليه القليلة ، عن قابيل وهابيل . وخفت أن أصبح يوماً ذلك الرجل الذى قتل أخاه بدافع الغيرة .

العمدة :

أكد على مأمور البندر ، بوجوب ظهور الدراويش بالمظهر اللائق أمام حامد ، وبخاصة أمام زوجته سيمون الفرنسية . حتى نرفع رأس حامد أمام زوجته ، ونرفع رأس الدراويش والناحية بل ومصر كلها ، أمام الخواجات جميعاً ، ممثلين فى شخص الست سيمون . وقد وعدت السيد المأمور ، وأكدت له ، بأنى سأولى هذا الموضوع كل عنايتى . وأعلنت له أنى سأدعو مشايخ الدراويش وأعيانها إلى اجتماع عاجل ، بخصوص ذلك . ومنذ عودتى من عند المأمور إلى الدراويش ، والبلدة كلها فى حالة طوارئ واستعدادات لاستقبال حامد بن مصطفى البحيرى ، الذى فتح الله عليه فى بلاد

الأعاجم ، وزوجته سيمون القادمة معه من بلاد الفرنسيس ،والفرنجة ، والأعاجم .

قلت للجميع إنه لابد أن تظهر الدراويش بالمظهر اللائق بها وبالديار المصرية . ووافقونى على ذلك . وأخذنا ، طوال أسبوعين ، فى تهذيب حشائش القنوات ، وترميم جسورها (فقد ترغب الست سيمون فى أن تتمشى عليها فى المصارى) ، وردمنا البرك والمستنقعات. ومن حسن الحظ أنه لم تكن لدينا زراعات أرز قريبة من الدراويش . فتردم الشوارع والبيوت بالناموس . وعبدنا طرقات الدراويش ، وردمنا حفرها بطبقة جديدة من الردم الذى اقتطعناه من جسر النهر ، الملاصق للأراضى المزروعة . واتفقنا على عدد كبير من الكلوبات مع أحد محلات البندر ، لنضعها وقت اللزوم على نواصى الشوارع الرئيسية طيلة الليالى التى ستقيمها سيمون فى الدراويش ، لكى تبدو الدراويش لسيمون ، وكأنها مضاءة فى كل الليالى من سنوات بعيدة . واتفقنا على ضرورة فرش الطرقات الرئيسية بالدراويش بالرمال المجلوبة على الجمال والحمير ، بعد نقلها بالمراكب المؤجرة طبعاً ، من الصحراء المجاورة للضفة الأخرى من النهر . وحجزنا بالفعل لحامد وسيمون عشة بمصيف الناحية القريب ، لتقيم فيها سيمون يوماً أو أكثر ، حسب

رغبتها ، إذا شاءت ذلك . وأصدرت أمرا ، أعلنه للكافة منادى الدراويش ، بمنع رمى مياه الغسيل والاستحمام فى الحارات والأزقة ، وبأن من يخالف هذا الأمر ، فسوف يتعرض لعقاب شديد من العمدة ومأمور البندر ، وعلى الحاضر أن يعلم الغائب . ومن باب الاحتياط ، أمرت الخفراء بضرورة إبعادهم مع الأهالى لروث البهائم والحمير ، من شوارع الدراويش ، فى الصباح وفى المساء ، وبضرورة مراقبتهم لأولاد الدراويش حتى لايتبولوا فى الشوارع ، ووراء البيوت .

أجهدنا أنفسنا طوال أسبوعين ، فى تنفيذ ما اتفقنا عليه ، ومراقبة ما تم من إصلاحات ونظافة . وفى الليالى العديدة السابقة لحضورها ، كنا نجلس فى دوار العمودية ، نتحدث عما انتهينا منه ، وعما يجب علينا القيام به . ولم تخل أحاديثنا من حكايات مختلفة عن بلادسيمون الفرنساوية . وكان بعض الحضور من متعلمى الدراويش ، فتذكروا لنا الحروب القديمة التى كانت بيننا وبين الفرنسيين ، منذ حوالى مائة وخمسين سنة ، وبين ماتذكرناه ، وهذا ما أكده لى جدى ، وحدثتنى عنه جدتى ، رحمة الله عليهما ، أن الفرنسيس قد أقاموا فى الدراويش سنين ، وعاشروا نسائنا ، والعياذ بالله فى غير حلال . وبعضهم أقام فى بلادنا ، وأسلم ، وتزوج من نسائنا ، ومارس التجارة أوفلاحة الأرض . واكتشفنا ، نقلا عن المسنين ، أهل الخير والبركة

نقلا عن الأجداد الراحلين ، أن قريتنا مات فيها من أبناء الدراويش والبلدان المجاورة ، وبيد قوم سيمون ، سبعة عشر ألفا . جزنا لذلك أشد الحزن ، وغضبنا له أشد الغضب ، لكننا قررنا ، والفضل راجع لإمام المسجد ، أن ذلك شيء قد مات ، وأن الثأر من قوم سيمون يسقط بمرور سبعة أجيال . واكتشفنا أيضاً ، ونحن نضحك ، السر فى هذا البياض الشاهق ، فى وجوه بناتنا ونسائنا ، والسر فى كثرة العيون الملونة بين أولادنا فى الدراويش ، وفى النواحى المحيطة بنا ، من فارسكور حتى عزبة البرج ، ومن بور سعيد حتى الاسكندرية .

وكان فى تقديرى ، وتقديرالآخرين ، الذى لم يفصح عنه أحد ، أن حامد الآن واسع الغنى ، وفير الثراء ، وهو لا بد معوض الدراويش ، وهى موطنه الأصلى ومسقط رأسه ، ومن أجل زوجته ، على الأقل ، إن لم يكن من قبيل الوفاء ، عن كل ماغرمته الدراويش ، من أجل الاحتفاء به ، ورفع رأسه ، ورأس الدراويش ، أمام الفرنجة ، الحاضر منهم والغائب . وهو أمر لا بد أن تتحدث به سيمون ، عندما تعود إلى بلادها سعيدة وممتنة ، تحمل معها أطيب الذكريات ، لقريتنا البسيطة الجميلة ، الجالسة كالعروس قريباً من جسر النهر .

محمود بن النسي :

جاء اليوم المشهود . ازّينت ، من الصباح الباكر ، نسوة القرية، وزين معهن الأولاد من البنين والبنات ، بخير ما لديهن من ثياب . بدا الأطفال والصبية ، وكأنهم فى يوم عيد ، دونه كل الأعياد . الملابس قديمة حقا ، ولكنها كانت مع الصباح نظيفة ، لا يخلو بعضها من رقع خيطت بغير دقة أو إحكام . كان أكثرهم بغير أحذية ، ولكنهم حرصوا على غسل أقدامهم وتجفيفها ، قبل الخروج من البيوت ، بأيدى الأمهات والأخوات . الرجال ، وبخاصة الأقارب منهم ، والمتزون بمظهرهم ، والأعيان الميسورون ، ارتدوا ملابس نظيفة ، بعضها كوى حديثا بمكواة قدم فى المدينة . النسوة ،

وبخاصة المتزوجات منهن ، واللاتى بلغن الثلاثين ، ظللن يلبسن السواد ، ويدثرن رؤوسهن بالطرح ، برغم شدة حرارة الجو فى هذا اليوم . لم يخل الأمر من عدم اكتراث ، من الكثيرين ، من بعض رجال القرية ونسائها . أخذوا يمارسون أعمالهم اليومية المعتادة ، فى البيوت والطرقات والمزارع ، فليس لهم ، كما أعتقد ، فى العير ولا فى النفير . غالباً لم يكونوا من الأقارب ولا من الأعيان . كانوا يكدحون على معاشهم ، كالعادة ، يوما بعد يوم .

ومع الضحى ، بدت الصورة الجميلة للقرية تهتز . الجالسون على المقهى أضاعوا المظهر الطيب لثيابهم وأحذيتهم بالإهمال ، والعرق ، والحر . والأطفال والصبية أخذوا يمارسون ألعابهم ، بعد طول تحفظ وانتظار ، لا ألفة لهم به ، فاتسخت الملابس والأقدام والأحذية . والشوارع ، وبخاصة تلك المؤدية إلى بيت أحمد بن مصطفى البحيرى ، اختلط أديمها المغطى بالرمال ، بالتراب ، من حركة أقدام الكبار والصغار ، ومن روث البهائم والحمير ، وعجلات عربات الكارو والجاز . وحركة الذباب وطنينه تزايدت مع الحر ، كلما اقتربت ساعة الظهيرة ، وبالذات فى الأماكن الظليلة ، للأشجار والجدران .

قرب الساعة الموعودة ، كان الكث... توافدوا إلى الطريق

الزراعى المرصوف . امتلأت مقاعد المقهى . وظل الكثيرون يستظلون بالشجيرات القليلة وبالشماسى ، وببعضهم البعض ، وبسور الأرض المزروعة المجاورة ، من حركة السيارات والمرور . وحين طال الانتظار جلسوا على الأرض متربعين ، أو مقعين على أقدامهم. وامتلأت بالنسوة أسطح البيوت القريبة ، المطلة على الرجال ، من الضفة الأخرى للقناة الصغيرة ، بين جالسات وواقفات ، ومنطرحات فوق أكوام القش والحطب ، على بطونهن ، وقد جمعن أطراف الطرح على رؤوسهن ، اتقاء لحرارة الشمس ، ووهجها الحاد . وكان الخفراء متناثرين هنا وهناك ، على ضفتى القناة ، يحجزون الأطفال وراء القنطرة ، فى مواجهتنا . البعض ظل صامتا ، لكن طنين الأحاديث ، والأحلام الهامسة ، كان يزيد من الشعور بحرارة الشمس المتوهجة ، فى سماء طباشيرية صافية . وكانت العيون مشدودة غالباً صوب الجنوب ، حيث ستقبل سيارة حامد البحيرى الباريسية ، وتظهر فجأة ، فى لحظة باهرة لا تنسى ، مارقة من المنعطف، عند نقطة مرور « العادلية » . وكان المأمور ، مع ضباط البندر ، والعمدة ، وأعيان القرية ، ومعهم أعيان من البندر نفسه ، ينتظرون هناك ، مقدم سيمون وحامد البحيرى . وعلى طول المسافة بين القنطرة ونقطة

المرور ، بل وبعدها بقليل وقف مايزيد عن مائة عسكرى ، يحلمون بالنفحة الكريمة التى سيهبها لهم حامد البحيرى .

وأخيراً .. جاءت اللحظة التى لاتنسى . لمع جسم السيارة ،وكان أحمر اللون ، عبر ضوء الظهيرة الباهر ، وأوراق الأشجار المظللة عند نقطة المرور ، وهى تتوقف فجأة . وجرى الكل،الرجال والأطفال، نحو السيارة . ونسى عسكر البندر والخفراء واجبهم ، فعدوا بدورهم نحو السيارة الحمراء . حتى الذين كانوا يعملون فى الحقول، وفى البيوت، أسرعوا ، بدافع الفضول ، تاركين وراءهم الفئوس ، والمواشى ، والأطباق . علت صيحات الكل وسط زغاريد النسوة ، وصريخ الأولاد : حامد يا أولاد . حامد والفرنساوية . لو كان الملك نفسه هو القادم ،لما كان المشهد بهذه الصورة . ثار الغبار ثائراً مع اندفاعة الناس ، ثم ارتد مع عودتهم البطيئة ، وهم يرتدون عائدين مع السيارة ، ملتفين بها ، ومبطئين من حركتها . وتوقفت السيارات العامة والخاصة ، المقبلة على الطريق من ناحية البندر ، أمام هذا الزحام . وراحت أبواقها تزعق محتجة ، ثم راحت تصرخ فى إيقاعات تحية ترحيب ، عندما عرف السائقون جلية الخبر من جرسون المقهى . وفزعت الطيور المختبئة من الحر بين الأغصان من الضجة ، فحومت

فوق الرؤوس مقتربة ومبتعدة. وبرغم بطء السيارة، كان أعيان القرية والبندر يجرون خلف الموكب وحوله، مع عسكر البندر، وسائر الناس. وأبواق السيارتين اللتين تحملان المأمور والضباط، تزعق محذرة الناس. والسيارة الحمراء المكشوفة، الفارهة طولا وعرضاً، فى المقدمة، تحيط بها عدة موتسيكلات خاصة بالمواكب فى مثل هذه المناسبة.

كان طول الانتظار قد أرهقنى، وما أراه قد شدهنى، فظللت واقفا عند القنطرة، بالرغم من تكليفى، من المامور، والعمدة، واحمد بن مصطفى البحيرى، لمعرفتى بلغة سيمون، بالتواجد قريبا منها، حين يكونون معها • اقتربت السيارة من القنطرة، والناس يتدافعون ويتزاحمون، ورأيت فجأة أمام عينى عالمين: وجوه الناس جميعا، ووجه سيمون، وحتى وجه حامد الذى تغيرت بشرته وهيئته كثيرا، حتى لا تستطيع أن تدعى انه من سلالة الدراويش، مع انه كان ذات يوم، واحداً من صبيتها الحفاة، المرقعى الثياب، الدائمى الشكوى من المغص، والبول الأحمر، والصداع والدوار، وآلام العينين • وكان يمكن أن يظل كذلك، إذا قدر له أن يعيش حيا فى الدراويش، حتى الآن •

كان يمكن للسيارة الحمراء المريضة أن تمر فوق القنطرة ، لكنه كان من المحال أن تستطيع السير فى الشارع الرئيسى لضيقه بالنسبة لها . ويبدو أن حامداً أحسن بهذه المشكلة ، لأنه دار بسيارته منعطفاً يمنة ، والعسكر والخفراء يضربون الناس ، وتوقف بها فى الفراغ الذى يبدو أنه لم ينسه بعد ، والكائن بين المقهى ، وغرفة الصفيح التى ترقد بداخلها طاحونة القرية الحجرية . نزل هو وظلت هى جالسة ، واستدار حامد ليفتح لها الباب ، لكن المأمور كان أسرع منه . ففتح لها الباب ، وانحنى ، وقال لها بالفرنسية :

— تفضلى .

نزلت سيمون . هذه هى سيمون ، قادمة لتوها من عاصمة النور ، من بلد البوليفار ، والسوربون ، والحى اللاتينى ، وغابة بولونيا ، وميدان الشانزليزيه . سار أمامنا المأمور ، مفسحاً لها الطريق ، وتبعته مع حامد ، يليهما الضابط ، فالعمدة ، فالأعيان . شديد الأناقة هو حامد ، تطفر الصحة من إهابه . وبدانته ، على طوله الفارع ، واضحة . أما هى ، سيمون فليست جذابة ، ولا جميلة ، ولا قبيحة . جلدها أحمر ، لوحته الشمس فى الطريق بسرعة . عودها على نحافته بض وممتلىء . فستانها الأزرق الريشى ، بشرتها ، فاتنان وساحران معاً . خطوها

عزف ، وعيناها الزرقاوان تبرقان حيوية . عديدات هن في قريتنا أجمل كثيراً منها ، وأكثر جاذبية، لكن هذه فيها روح ،وشخصية متكبرة ، وعزيزة ، على مايبدو فيها من خفةومرحوبساطة. وشعرت حيالها بالأسى لنسائنا جميعاً .

عبرنا القنطرة وراء السادة ، لنرى مزيداً مما يحدث ويجرى ، مزيداً من المشهد النادر ، لفرنسية في الدراويش . سيمون ! آه .. سيمون . كم هو جميل اسمهاوساحر ، جمال عينيها ،وسحر الكاميرا التي تتدلى من كتفها ، عند خصرها النحيل .

٢ - دوامات فى الدراويش

حامد البحيرى :

الفرحة بالعودة إلى الوطن ، تبددت كما يتبدد الحلم ، متماوجا مع صدمة الصحوة ، بدا العالم قريبا ، بعض الشىء ، من العالم الذى جئت منه ، فى الاسكندرية ، وأقل من ذلك فى القاهرة : العمائر والطرقات المرصوفة كتلك التى تركتها ورائى فى باريس ، ونيس ، ودوفيل . لكن عجلة الحياة اليومية تختلف كثيرا ، مثل اختلاف الناس . من خلفتهم ورائى ، ومن أراهم أمامى. بدت أكثر الرؤوس عارية ، قلت الطرابيش والعمائم ، والثياب البلدية ، والثياب الافرنجية ، وانتشرت البدل ، والرؤوس المشطة الشعور . قريبو الشبه

من قوم سيمون ، برغم وجوهم السمراء ، وعيونهم العسلية . لكن الروح والحضارة !! النظافة والطباع !! أزعجني الموظفون والحمالون ، والكتبة والباعة ، بمعاملاتهم معى ، ومع الآخرين . عزوت ذلك إلى الحر ، والعرق ، والغبار الذى تسبح ذراته ، وتكسو كل شيء تلمسه الأصابع ، والذباب . لكن قلبى بعد كل تبرير ، لم يكن مقتنعا أمام روائح الأفواه ، وكلمات السباب ، والرقة المفقودة ، وغيبة السلوك المهذب .

كنت أنظر دائما إلى وجه سيمون ، لأرى على ملامح وجهها ، وفى التماعة عينيها ، ردود الفعل لبلادى ، وأهل بلادى. لكن فرحها بالرحلة والاكتشاف ، كان طاغيا ، يمنحها قدرة على الاحتمال الأبله. أدرك ذلك، برغم توق الشديد الطائر، إلى رؤية أهلى،وبلدى،والقناة، والقنطرة ، وأشجار النخيل ، والجيزة العجوز . ترى هل ما تزال باقية ؟ ما زالت الأشياء تحمل أسماءها فى نفسى ، وتتوافد صورها على ، عامة ومجملة ، ضبابية ومهتزة ، من أغوار ذكريات بعيدة ،طالما ارقتنى وعذبتنى ، على ظهور البواخر ، والقطارات والمناجم، ومغاسل المطاعم ، ثم فى متاجرى الأنيقة ، وفندقى الشهير فى باريس .

فى الطريق ، افتقدت الشعور بالغابة ، وبالمزارع الأوربية ، والخضرة البكر المتعددة الدرجات . والأرض تطوى تحت عجلات السيارة المتأرجحة بالاندفاع والمطبات ، والغبار يثور محوما متراجعا وراءنا ، تاركا بقاياه على العرق اللزج ، ورائحته فى الأنف. والأشجار القميئة المصفرة الخضرة ، والشوكية ، تجرى على الجانبين مع الترعة ، وأعمدة التليفون ، والمزارع المنبسطة الممتدة على المدى . وأزعجنى الفلاحون ، وهم ما يزالون يعملون بأيديهم ، جنبا إلى جنب ، مع الحمير والجواميس والبقر . وأزعجنى مشهد القرى الطينية الواطئة ، المتلاحقة ، والوجوه الذابلة السمراء ، المصفرة الممصوصة ، معلنة عن الأنيميا ، والدوسنتاريا ، ونقص الهيموجلوبين . وقلت لنفسى :

« هذا هو الوطن » .

ومن العجيب ، أن سيمون كانت مسرورة بما ترى ، بالشمس الساطعة المحرقة ، وبالخضرة الممتدة ، وبالحياة البدائية . كانت تصيح بين لحظة وأخرى :

— أوه .. هامد .. أنظر . هذه الأرض المنبسطة . والماء

الكثير . أتظل بلادكم أبدا غارقة فى الشمس ، حتى فى الشتاء ؟ أليس عندكم جليد ؟

لكنها أيضاً قالت :

— لكن ، أين الغابات ؟ لماذا يبدو المرض على وجوه الناس ؟ لماذا يزرع الناس بدون ماكينات ؟ لماذا يمشى الأطفال حفاة ؟

كانت أسئلتها تقتلنى . وكنت أقول لنفسى :

« هذه هى بلادى . وهؤلاء هم قومى » .

وكانت ترى الحرج على وجهى . عندئذ كانت تقول لى ملاطفة، بأدب قومها المعهود :

— بردون شيرى .

ثم تعود لتسأل من جديد ،أو تلتقط صورة ، ووددت لو لم تأخذها قط ، لكل ما يخجلنى ، ولا يسرنى ، وسوف لا يشرفنى أيضا فى باريس . لكن هذه هى الحقيقة ، وذلك هو الواقع ، ولا حيلة لى فيه .

توقفنا مرارا عند نقطة المرور ، وساعدتني كثيرا لغتي،والأوراق التي أحملها معي من القاهرة ، برغم لكنتي الأجنبية ، وجنسيتي الفرنسية . وكنت مضطرا دائما لشرح الغاية من سفري داخل البلاد. وأبدت سيمون، ونحن نمرق على الطريق أمام قرية « كفر شكر » ، رغبتها في أن نتوقف لنشرب شيئا في مقهى متواضع ، ونشترى فاكهة نأكلها ونحن جلوس . فتراجعت بالسيارة بضعة أمتار ، ووقفنا بجانب الطريق ، ونزلنا . وغسلت سيمون وجهها وساعديها،وشربنا، زجاجتين من المياه الغازية ، مثلجتين بعض الشيء . وأكلنا فاكهة غسلها صاحب المقهى بنفسه . وتحلق حولنا الكثيرون من القرويين ونسائهم وأطفالهم، كأننا قادمون لتونا من كوكب آخر . ثم واصلنا السفر من جديد . وخشيت عليها في الطريق من أن تصاب بمغص . بسبب الخوخ والمشمش الذي أكلته في المقهى ، مغسولا بمياه أعلم أنها من الترعة . بل قد أصاب أنا الآخر معها ، إن لم يكن بمغص ، فبالدوسنتاريا في الغداة . إنني لم أنس بعد السنوات العشر التي عشتها هنا ، وما كان فيها من آلام ، عرفت أسبابها في باريس ، وكم عانيت منها سنوات طويلة .

حين توقفنا عند نقطة مرور « العادلية » ورأينا الشرطة ، ظننت

شرا ، ثم ضقت باستقبالهم وحفاوتهم . ربما كان الخجل منهم، في مواجهه سيمون ، ومن الأعيان ، والفقراء ، والأطفال ، هو سبب هـذا الضيق الذى أخفيته فى قلبي ، وراء ابتسامة عريضة ، وبخاصة حين رأيت السعادة فى وجه سيمون . هذا هو أخى، طالما وددت أن أعانقه، وتلك هى أمى العجوز ضامرة ، انكمش منها ، مع السنين ، العرض والطول . صافحتهما، وتركتهما يقبلانى . وعانقت أمى سيمون وقبلتها على الخدين ، وتحسست وسط الكحل شعرها ، ولحم كتفيها ، فجفلت سيمون . ثم أرسلت أمى زغرودة مدوية ، ومشروخة ، ومبحوحة . ولم يوقفها سوى السعال المفاجىء .

هذه هى قريتى « الدراويش » بيوتها الطينية الواطئة. شوارعها الضيقة ، كأنما تخشى أبدا من غـزو متوقع . السواد الذى يكسو الوجوه ويلون ملابس النسوة . والأرض الترابية الجافة السبخة ، وأكوام القش فوق أسطح البيوت . هذا هو الحلم الذى عشته ، وشدنى ، وجئت من أجله . برغم كل شيء ، فهو هنا فى قلبي، جارف وعارم ، أشعر معه ، مع الغيظ والقرف ، بالحب والراحة . فكرت : ترى . هل سيمون سعيدة حقا بما ترى وتسمع وتشم ؟ سألتها ، فقالت وهى تهز رأسها ، وعيناها تلتمعان برضا بالغ :

— بو كو.

لكننى كنت أعلم ، أنه فى ذات اللحظة ، سوف تذهب السكرة، وتبقى الفكرة . وتضايقت للغاية، حين ذكر لى أخى أحمد ، قبل أن أوقف السيارة بجانب المقهى ، أنه لم يستطع أن يبنى لنا بيتا على الطريق الزراعى. واستسلمت للأمر الواقع ، حين أكد لى ، ونحن نعبر القنطرة ، أنه قد أعد بيتنا القديم (الذى أذكر ظلامه ، وأنه مدفون فى الحارة ، من ثلاث جهات بين البيوت) ، بصورة ترضى سيمون . ومنحنى هياج الناس ، من حولنا ، شعورا بأننى غاز مظفر ، عائد لتوه من حرب هائلة ، بهذه السيارة وبسيمون ليلة الحوا بات ، كابرا بعد كابر . وودت لو قدم لها أى أحد باقة من الورد ، أو حتى عودا أخضر من أرضنا الطيبة .

أحمد البحيري:

خرجت سيمون من الحمام ، محلولة الشعر ، مبتلة مثل العروس ، في أول صباح لها ، وذهبت إلى غرفتي التي أخليتها الماهي وحامد ، وأقمت قبل أيام ، مع زوجتي زينب ، في غرفة أمي . ودخل حامد الحمام ، ثم غادره ، ولحق بسيمون . وحين فتحا الباب ، كانا بثياب الخروج ، فعجبت لحالهما لأنهما لن يغادرا البيت الآن . كانت سيمون ترتدي فستاناً قصيراً رمادياً ، وكان حامد ببدلة زرقاء ، وكرافتة معقودة الفيونكة ، مثل جرسون مقهى النهر في البندر . وكنا قد وضعنا أطباق غداء فاخر على المنضدة . كانت كمية الطعام هائلة ، تكفي

الحارة بأسرها، مماجعل سيمون تصرخ فى فزع ودهشة، ثم استسلمت، وهى تتحدث بلغة بلادها عن الكرم الشرقى ، وما فيه من إسراف وخرق . أى والله . هكذا قال لنا حامد ماقالته بلسانها . وعجبت من أمرها على المائدة : الشوربة أولا ، ثم بقية الطعام واحداً بعد الآخر، هكذا فرضت سيمون النظام علينا ، وكان حامد يترجم لنا ماتريده، وينقل إلينا ملاحظاتها أولا بأول ، وعهدى بأن يسير الإنسان ، فى مأكله ومشربه ، حسب البلد الذى يذهب إليه .

جهدت لأضحك سيمون على الغداء . وكان حامد ينقل إليها بأدب واهتمام ماأقول ، فلا تزيد على أن تبتسم ، وتقول :

— برافو .

خجلت وأنا على المائدة من مظهرى أمام مظهر حامد ، ومن مظهر زينب أمام مظهر سيمون. أما أمى فلندعها على جانب وحدها، جهد خياط الدراويش فى تفصيل ثوب كشميرى لى ، جعلنى أتصبب عرقاً ، مع الحر ، وسخونة الشوربة . وبذلت الست « رفرف » كل مافى وسعها لتبدو زوجتى وأمى فى ثياب محبوكة . ولكن ، متى علت العين على الحاجب . نسيت مراراً ، وشربت الشوربة ، والماء

المغلى المبرد ، بصوت مسموع ، برغم أننى أنا الذى نبهت على زوجتى وأمى، محذراً من أن تفعل إحداهما ذلك . وقعت أمى فى نفس الخطأ باستمرار . ولم تكف زينب التى لم تخطىء أبداً ، عن النظر إلى ، وإلى أمى مؤنبة . كانت تراقب ماتفعله سيمون على المائدة ، وتفعل مثلها ، إن رفعت الملعقة وإن وضعتها ، حتى فى درجة فتحة فمها لتدخل الطعام فيه . وكان منظرها مضحكا ، وهى تحاول أن تأكل مثلها بالسكين . وفكرت أن الإنسان منا لا يمكن أن يغير عاداته فى يوم وليلة .

وحدث أن مدت سيمون يدها ، لتغرس السكين فى فخذ الرومية ، فبان إبطها مشعراً ، أصفر ، طويلا . شعرت بالقرف . ولاحظت زوجتى مارأيت، فابتسمت فى تشفّ ، ونظرت إلى ساخرة، فزغرت لها محذراً ، حتى لايلحظ حامد حديث عيوننا . فكرت أن الحلو دائما لاتكتمل حلاوته . وتحيرت بينى وبين نفسى، كيف لاتنظف سيمون جسدها ،وهى المتمدنة الراقية ، وهى تعلم أنها ذاهبة لزيارة أهل زوجها ، فى بلد غريب عنها !! .

كان حامد وسيمون يأكلان بالحكمة . ويتحدثان همساً ،

تقريباً، ولذلك كانت أمى، الثقيلة السمع، تمد أذنها نحوى. وتسألنى بصوت مرتفع عما يقولانه. فيحاول حامد رفع صوته، ويجيبها بحنو ورقة، بكلمات متقطعة، متعثرة، وكأنه يحاول البحث عن كلمات نسيها فى غربته خلال ثلاثين سنة، ويستفسر منى لأذكره بها. بل كان أحيانا يحشر كلمة فرنساوية وسط كلامه، فكانت أمى تفتح فمها مرارا من الدهشة، وزينب تحاول أن تكتم ضحكها، بينما ترنو إليهما فى عجب من أمرهما.

فرغنا من الطعام. فذهبنا أنا وحامد إلى غرفة الصالون. وأمرت سيمون على التخلف عنا، لمساعدة زينب وأمى، والخادمة التى استأجرناها مؤقتاً، للمساعدة، وللظهور بمظهر طيب أمام سيمون. أخرج حامد كراسة صغيرة من جيبه. سألنى حامد عن النقود المتبقية معى، فذكرت له الأبواب التى أنفقت فيها نقوده. ومن عجب أنه لم يتأثر لنفادها. وأعطانى مائة جنيه للانفاق منها مدة إقامته. وتبسط معى فى الحديث. سألنى عن أحوالى وعملى، وكيف عاش أبونا ومات. ثم راح يسألنى عن الأقارب أسرة أسرة، وواحداً واحداً. ومن ولد، ومن تزوج، ومن أنجب، ومن مات، ومن رحل عن القرية، ومن بقى. كان حامد يسألنى، وبدون كلاما يكتبه من

من اليسار إلى اليمين ، ويضع أمامه أرقاما ، خجلت أن أمد بصرى لرؤيتها ، ثم أخرج حافظته مرة ثانية ، ووضعها أمامه ، وأخرج سيجارا بنى اللون، وكان طويلا وضخما ، وقدمه إلى ، وأشعله لى ، ووضع آخر فى فمه ، وأشعله لنفسه ، وراح يعد لى نقودا : هذه اعطها لفلان ، وهذه لفلانة ، وهذه لفلان . وحدثت نفسى ، وأنا أتأمل السيجار والمال ، أنه صاح ، لا تغيب عنه شاردة ولاواردة ، ولا يفوته فعل مكرمة . لم ينس أن يصل رحمه ، لكننى ، والحق يقال ، اعتبرته مجنونا ، لأنه يبدد كل هذا المال ، ويثير من حولنا الحسد ، وعشر هذا المبلغ ، يكفى لملء العيون التى لا يمكن أن يملأها سوى التراب. ويمكننى ، أنا أخوه ، وشقيقه ، أن أتاجر بهذا المال وحده ، الذى أعطاه لى ، فى السماد ، والسباخ ، والأرز ، والقمح ، والجاز ، والتقاوى ، والقطن ، والقماش ، وكل شىء ، كل شىء . وقررت ، بينى وبين نفسى، أن أنفذ كلامه بطريقتى ، فإذا كان هو لا يعرف ، فأنا أعرف ، وأنا وأمه وأولادى أقرب الرحم إليه ، وأولى بأن نلملم من حوله هذه البعزقة المنعمة .

ونحن جالسان معا ، جاء أولادى من عند خالتهم : الصبيان الثلاثة والبنتان ، قدمتهم إليه ، وسلموا عليه ، وقبلوه وقبلهم ،

وجلسوا بأدب، فنفح كلا منهم خمسة جنيهات . وراح يتحدث معهم، وحدثني غاضباً عن ضرورة ذهاب البنتين إلى مدرسة البندر ، فأظهرت له الموافقة على رأيه . وطلب منى أن أذكره بخطاب أرسله إلى باريس، عندما يكون أحدهم ، ولدا أو بنتا، على وشك الزواج. وحث ولدى الأكبر على الحصول على الشهادة الثانوية ، ليرسل فى طلبه ، ويتم له تعليمه العالى فى باريس . شعرت نحوه بامتنان شديد ، إلى درجة دمعت معها عيناى ، وشكرته داعيا له بكثرة الخير . فأوقفنى بإشارة من كفه، قائلا : إن هذا هو واجبه، وإننى أخوه. وجاءت أمى وزينب وسيمون ، وصاحت سيمون حين رأت أولادى، وقبلتهم. وحاولت عبثاً أن تتحدث معهم ، لكنهم لم يفهموا عنها، وأحسست أن جلستهم قد طالت ، فأشرت إليهم بنظرة لينصرفوا . ولحت سيمون نظرتى ، وبدا لى أنها تحتج على ما أفعل ، لكن الأولاد نفذوا ما أقوله ، وسلموا بأدب وانصرفوا ليذهبوا إلى بيت خالتهم . واستأذنت لحظة ، وخرجت وراءهم ، وأخذت منهم ما أخذوه . فعلت ذلك حتى لا يفقدوا كل هذا المال ، أو تنام عليه زينب بأى حجة . ونبهت عليهم ألا يذكروا لخالتهم شيئاً عن هذه النقود . ثم عدت إلى الصالون .

طالت جلستنا قليلا ، ولاحظت أن سيمون تداعب حامد . وبدا لى أنها تريده الآن . وكانت أمى ترقب ، وتضحك . وزينب تختلس إليهما النظر . وخشيت أن ترتكب إحداهما خطأما ، فنهضت مستأذنا ، وأخذت معى أمى وزينب، وصحب حامد زوجته إلى غرفتهما ليستريحا قليلا . وكنت أنا أيضاً أريد زينب ، بعد هذه الأكلة الدسمة ، غافلا عن أمى التى تقيم معنا فى الغرفة منذ أسبوعين . لكن ربما استطعنا أن نغريها بالصعود إلى السطح، لتطعم الدجاج وترعاه ، إلى أن يأتى المغرب . ولم يخطر لى ، وأنا فى قمة النشوة مع زينب ، أنى سأشعر فيها بسيمون بين يدى ، أعصرها عصرا . ولاحظت أن زينب كانت أيضاً ، مقبلة على ، بصورة لم أرها منها ، منذ سنوات كثيرة .

العمدة :

كنت قد أعددت ليلة لا تنسى ، فرشنا لها السجاجيد فى الشرفة، والمندرة ، وقاعة الضيافة ، والحصر فى ساحة الدوار . ونثرنا عشرات من الكلوبات جعلت المكان فى الليل ، وكأننا فى عز الظهر ، وقام محل « الفراشة » فى البندر بإعداد المكان على خير ما يرام . بطن الجدران بلوازم السرادقات ، وزود الدوار بالمفارش والسجاجيد ، والصوانى ، والأطباق والفضيات ، وعموما بسائر ما يلزم لليلة عامرة، لم يحدث لها مثيل من قبل فى المديرية كلها . وكنا فى الانتظار : أنا والمأمور ، وأعيان البندر ، والضباط وأعيان « الدراويش ». وجاءت سيمون مع حامد وأخيه أحمد إلى الدوار ، بمظهر أبهج قلبى كذكر،

وأغضبنى كرجل . ظهرها عار حتى المنتصف ، وشعرها مرفوع عن عنقها الطويل الذى يشبه عنق الغزال ، وثدياها بارزان ، ناهدان ، والنقرة بينهما مفتوحة وفاضحة ، وذيل فستانها الأحمر قصير ، فوق الركبتين . وكان شباب الدراويش والبلاد المجاورة يتصايحون خارج الدوار ، كالمجانين . وفكرت أنها ستفسدهم ، وتفتن علينا نساءنا المحجبات ، وبناتنا المغيفات . لكن ، ما باليد حيلة . فهذه هى الحال فى بلادها ، ومن شب على أمر شاب عليه ، وهى بعد ضيفة ، وزوجة واحد من أبناء الدراويش . غير أنى احتقرت حامداً من كل قلبى . وصغر فى عينى ، وهمست لنفسى فى سرى : « النطع » .

كانت سيمون هى المرأة الوحيدة فى الدوار ، باستثناء الراقصة ، فمن يقبل أن يأتى بامرأته إلى مثل هذا المجلس فى الدراويش ، ولم يفعلها أى أحد من البندر ، من المأمور إلى الضابط ، إلى طبيب البندر ، والمهندس الزراعى ، ومفتش التموين . جلسنا جميعا حول سفرة واحدة ، وجلس سائر الأعيان إلى موائد أخرى ، وقام المأمور بنفسه ، بترتيب جلوسنا . أجلس سيمون فى الصدارة ، وجلس هو

عن يسارها وعن يمينها زوجها ، بينما جلست أنا مقابل سيمون على الطرف الآخر . وأردت أن أداعبه ، لأول مرة ، على مجلسه منها ، فقال لى :

— هذه هى الأصول يا عمدة .

وكانت الأصوات تأتى من خارج الدوار عالية . والخفر والعسكر يزودون بالعصى : النسوة ، والأطفال ، وشباب الدراويش المسحورين بسيمون . وكان محل « الفراشة » قد حل لنا مشكلة الشوك والسكاكين فجاء بدستتين منها ، وحللنا المشكلة التى واجهها أحمد البحيرى فى بيته ، على الغداء ، حين لم يجد شوكة واحدة فى الدراويش . وراحت سيمون تأكل بالشوكة والسكين فى براعة ومهاراة ، دون أن تجرح نفسها بأصابع الشوكة ، أو بحد السكين المرهف الذى يقطع اللحم بمجرد لمسه . فعل مثلها حاسد والمأمور والضباط والطبيب والمهندس . أما أنا وأحمد البحيرى فأخذنا نحاول أن نأكل مثلهم بعذاب بالغ . عن نفسى لم آكل شىء يذكر ، فلم أسمح لنفسى بالخطأ أمام سيمون . وواريت ذلك وراء ستار القناعة ، والشبع ، والتعفف ، وكثرة المجاملة والعزومة التى دهشت لها سيمون . وأكثر من مرة ، زغرت أنا والمأمور للأعيان الأجلاف . وهم

يكرعون الماء والشوربة ، بأصوات مسموعة ، بدت لى فى حضرة سيمون غير لائقة . وكانوا يقطعون الدجاج والحمام بأيديهم ، فيسيل منها الدهن ، ويملأون أشداقهم بالطعام ، ثم يلوكونه ، ويتجشأون. ومع ذلك لا يتوقفون عن طلب المزيد ، ويعلم الله أنهم لم يغرموا فيما يأكلونه مليما واحدا . ولكن لاحياة لمن تنادى، فحين تنفتح البطون تغيب العقول .

لم تأكل سيمون كثيرا، وجففت شفتيها بطرف الفوطة، واعتذرت عن غسل يديها وفمها . وأرادت أن تظل جالسة حتى ينتهى الجميع من الطعام ، لكننى ، أنا والمأمور اقنعناها بألا ضرورة لذلك ، فنهضت ونهضنا معها : المأمور وأنا ومعاون المأمور ، وحامد وأحمد، وظل الآخرون يملأون بطونهم المفجوعة ، التى صاموا الماطول النهار. أخذناها إلى الشرفة المفروشة بالسجاجيد، والأرائك الوثيرة . وجلست فى مكان الشرف مع حامد ، وأخذت تروح عن نفسها بمروحة أنيقة ملونة ، رأيتها أحيانا مع غوانى الكباريهات فى ملاهى مصر . واغتظت من الذباب المحموم حول الكلوبات ، والفراش ، والناموس ، فاعتذرت لها بواسطة محمود بن المنسى (الطالب النابه ، ابن الخولى الذى يعمل فى أرضى) لكن حامد هون علينا الأمر ، بأنهما قد احتاطا

لذلك ، بواسطة دهان خاص ، دهنا به جلدها ، حتى لا يقترب منهما الذباب والناموس ، أو يصيبهما بأذى ، فحدثث نفسى ، أنه حقا فوق كل ذى علم عليم .

دارت علينا أكواب المانجو ، والشاى ، وفناجين القهوة، وأخذ الرجال يلعبون التحطيب فى وسط الدوار . ثم راح إبراهيم المنشد يغنى بأحد مواويل الحب، على أنغام الناى . ثم نزلت إلى الدوار راقصة فجرية، جئنا بها خصيصا لهذه الساعة، ورقصت على إيقاع الطبلة والناى والطار . وكانت سيمون تتحدث ، فى الوقت نفسه، مع الضباط الذين يعرفون لغة بلادها ، وبينهم واحد زار بلادها يوما ، وأقام فيها عاما، ومع محمود بن المنسى الذى يعرف الكثير عن بلادها ، وهو الذى لم يزر بلادها أبدا . بل إنه أخذ منها كلاما وأعطاها مثله ، عن منشدين من بلادها .

وكان حامد، أو كما تناديه سيمون : هامد ، كريماً معنا . دعانا : المأمور ، ثم أنا، إلى غرفة داخلية بالدوار، وترك سيمون فى الشرفة ، تتحدث وتتفرج ، وتلتقط عشرات الصور . ومنح حامد مئات من الجنيهات للمأمور من أجل رجال الشرطة ، ويعلم الله كم سيأخذون

منها حقا. ولى من أجل الحفر وإصلاح الدراويش ، وتكاليف الاستقبال التى ضاعفها ثلاث مرات ، وفوضنى فى الصدقة على فقراء الدراويش الذين كانوا يتجمهرون ، ويرقصون خارج الدوار ، ويتعلقون بالسور ، وسط ظلام لايخفف منه سوى ضوء الكلوبات الساطع فى ساحة الدوار ، ويزعقون ويهتفون ، ويدعون لحامد بمزيد من العز ، وطول العمر ، وأن تبقى له الخوجاية الفرنساوية .

ما دفعه حامد بن مصطفى البحيرى ، فى ذلك اليوم ، كان يكفى لشراء فدانين ، فى زمن ارتفعت فيه أسعار الأرض والقطن وإيجار الفدان ، وتذكرت واهب النعم، ومقسم الحظوظ . وفهمت ما عناه ، أمام المسجد عندما كان يقول لنا . « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » أى نعم . خرج حامد من بلدنا طريدا شريداً ، وعاد من وراء سبعة أبحر عزيزاً مكرماً ، مثل حسن البصرى الذى يحكى عنه إبراهيم المنشد . وتمنيت لو بقى حامد معنا ، إلى أن يحين الأجل . وكدت ان أعبر له عن أمنيتى ، لكننى خشيت أن ألفت نظره إلى شيء غائب عنه ، فيفعلها ويبقى فى الدراويش . خشيت منه على العمودية ، وخشيت ان تعلو عائلته المستضعفة ، به ، وبماله على عائلتى ، ولم أعرف : هل أحبه أم أكرهه ؟ وعجبت من قضاء الله وإرادته

وتصريفه . أنا أكبر رأس فى الدراويش ، ويأتى ابن البحيرى ليؤكد لى أنه أكبر منى . وعائلتى أكثر عائلة فى الدراويش مالا ، وأعزها نفرا ، ويأتى ابن البحيرى ليجعل لعائلته عزوة به وبماله ، وبزوجته الفرنسية ، وبعظهرها الذى يؤكد لنا جميعاً ، أننا ...أستغفر الله . فقد كرم بنى آدم ، وخلقهم على صورته .

انقضى الحفل تلك الليلة بسلام . وقـــد التقطت له سيمون العشرات من الصور ، بينها صورة لى ، قالت أنها ستكون بالألوان ، وسوف تبعث بها إلى من باريس ، وعاد كل إلى بيته ليستريح . وظل خيال سيمون معى . لم يبارحنى طيفها وأنا نائم . حسبت مرة أنها حورية من الجنة ، ومرة جنية خرجت من البحر ، ومرت فتنة سلطها الشيطان على الدراويش فى صحبة حامد البحيرى . وحين اقتربت منى زوجتى ، تلك الليلة ، متزينة على غير العادة ، ومتعطرة أكثر من ليلة الزفاف ، ومتى ؟ بعد خمس وعشرين سنة من الزواج ! صحت بها ، وأدرت لها ظهرى . لا أكذب على نفسى ، إذا قلت أننى أحسست بها ، فى تلك اللحظة ، كبقرة ، مجرد بقرة . طيف حامد نفسه جعلنى ، وأنا أدلف إلى الموت الصغير ، أحس من أنا

بحياله . خطر لى ذلك ، وأنا أحاول النوم ، بعد طول سهادوتفكير ، فيما ينبغى أن أفعله ، بما أعطاه حامد لى من مال ، ورحت أستعيذ بالله من الفتنة بسيمون ، وببلاد الفرنسيس التى تتخايل لعينى كجنة عدن .

أحمد البحـــيرى :

أحدث حامد وسيمون ، بمجرد وجودهما فى البيت والدروايش أضرارا شديدة لى ، ولأمى ، ولزينب. وينبغى أن أذكر أن أولاد الدروايش الشياطين ، لم يعد يحلولهم التبول إلا تحت حوائط بيتى . فأرسل العمدة خفيرا يحرسه طول الليل . وأن هؤلاء الأولاد المفاريت قـد كسروا زجاج ورتاين الـكلوبات والفوانيس ، المعلقة على نواصى الحارات ، فعادت الدراويش إلى ظلامها القديم. وخيل لى أن زينب مفتونة بحامد ، وأنها تنافس سيمون عليه ، بالتقرب منه ، والابتسام له ، والجرى لخدمته ، والتفنن فى التزين من أجله . لا بل هو حقيقة ، فقد صارت زينب تخاطبه مثل سيمون :

— أوه .. هامد .. بردون .. مسيو هامد .. مرسيه ..

بل صارت تقول لسيمون . وهى لاتفهم ماذا تقول لها سيمون :

— وى مدام ..

بل إن زينب ، حين كانت تنفرد بى فى الغرفة ، بعد أن قصت لها سيمون شعرها ، كانت تقول لى :

— بردون شيرى .. سى أحمد ..

ووصل بها الأمر ، إلى حد أنها رفضتنى ، لأول مرة ذات ليلة بحجة أنها متعبة ، ولا نفس لها . وأنها سئمت هذه المعاشرة كالأرانب ، ووجدتنى أكاد أتذلل لها ، وأتوسل ، فقالت لى :

— هيه .. هيجتك ؟

— من ؟

— هى .. أناديها لك .

أوشكت مراراً أن آتى بالخيزرانة ، وأضربها ، وأظل أضربها

حتى يعود لها صوابها ، كيوم ادعت أن عليها عفريتاً ، وأنه يريد زاراً. وودت أن ألطمها على فمها كلما نطقت : أحمد .. وى.. حتى يسيل منه الدم، لـكننى كنت خائفاً فى الحقيقة ، من أن تنكر سيمون على ذلك ، ولا قبل لى بغضبها على ، أو أن ينظر إلى حامد باحتقار. وكانت أمى تضحك كعفاريت المقابر ، كلما شهدت أزمة بينى وبين زينب ، ثم تغادرنا لتنام على السطح فى العراء ، لنستطيع أن نتفاهم معاً . وأفلحت ذات مرة فى ترويض زينب ، فشعرت بأنها باردة كالبلاط فى الشتاء ، وبنفسى ثقيل الظل ، أمارس العادة السرية بصعوبة متعبة ، حتى أننى أدرت لها ظهرى فى النهاية ، غير راض ، ودون أن أقول لها كلمة . وعجزت عن النوم إلى أن صاحت الديوك. ونهقت الحمير ، وكفت الـكلاب عن النباح .

وفكرت أن زينب لو أحست أننى معجب حقاً بسيمون ، إلى حد الحب ، لتوقفت عن عنايتها واهتمامها بحامد ، وذلك ما حاولت أن أفعله على مرأى من زينب ، مع سيمون ، لأحتفظ بها ، لأجعلها تغار على : ولـكنها لم تبد أبداً ما يدل على غيرتها . كانت فقط تغار على حامد من سيمون ، وتسخر منى ، لأنها تعرف سلفاً أن مثل

سيمون لن تهتم بى. وعيرتنى ذات مرة، بأننى لست مثل حامد، فلطمتها فى تلك اللحظة على وجهها . لم تبك ، وإنما خرجت غاضبة، وجلست فى صالة البيت ، تنصت ، علها تسمع صوتاً من وراء الباب المغلق على حامد وسيمون .

وأصاب أمى نوع من الخبل ، أكثر مما كان لديها منه . ففى الظهر، كل يوم ، وساعة القيلولة تفرض نفسها علينا (حتى على سيمون التى ذكرت لنا مرة أنها لاتنام فى النهار) كانت أمى تنبطح على بطنها، فوق سطح الدار ، تدلى رأسها تقريباً من حافة السقف، وتروح تنادى على كل من يسير فى الطريق ، أن يدخل الدار ليأكل ، فعندها أكل كثير، يرمى فى كل يوم للدجاج ، حتى أنه تعود أكل اللحم ، ولم يعد يأكل سواه ، وأصيب بالسعار ، وسوف يأكل لحم بعضه ذات يوم ، عندما ترجع حليمة لعادتها القديمة : الفقر ، وقصر ذات اليد . كنت أسمع أمى كأنها تحدث نفسها بصوت مرتفع . وكنت أخشى أن يسمعها حامد ، برغم بعد غرفته عن مكانها ، حيث تطل نافذته على المزارع المليئة بالأشجار والنخيل . فأصعد إلى السطح لأعيد أمى إلى صوابها ، مرة بالغضب ، ومرة باللين ، وحتى لاتظن سيمون بها الظنون ، وأنها مجنونة مثلا ، فتصيح أمى بى ، وكأن

سيمون قد قالت لها ذلك فعلا ، فى وجهها :

— أنا مجنونة ياسيمون . طيب . بنت العفاريت الحُر . والله لأفرجها . إن تركتها تقعد فى بيتى . إن تركته يبقى معها دقيقة واحدة .

— أنا أقول مثلا ، مثلا، ياأمى . هى لم تقل ذلك ، لكن ربما تفكر فيه .

فتبعدنى عنها غاضبة ، وتعود إلى منامتها ، فى ظل جدار غرفة الدجاج ،ومثلت النور الزجاجى ، وتنطوى على نفسها ،وتروح تهتز فى جلستها ، وكأنها تبكى على أحد .

أربكنى حامد ورجلى ، عقلى يقول لى أنه أخى ،وأنا فخور به أمام الناس ، وقد ارتفع سعرى فى الدراويش ، وفى البندر، وراجت دكانتى التى يديرها الآن ابنى الأكبر على صغره . لكننى لا أشعر بأنه أخى حقاً ، فلا ذكرى واحدة قديمة عشناها معاً ، أجدها فى نفسى. مايزال غريباً بالنسبة لى أنا ، على العكس من أمى التى تذكر كل ما كان منه ، بل وتضيف حكايات أخرى من عندها ، على أنها سنواته العشر التى عاشها فى الدروايش ، مع على

بأنها لم تحدث منـــه أبداً ، ولا تسأم من تذكيره بها ، وحكايتها للجيران والعجائز ، مؤكدة لهم جميعاً ، أنه حقاً مسعد ، لأن أسنانه مفلوجة ، وقد عرفت هي ذلك عنه منذ صغره ، وله من العمر سنة واحدة . وبدت لي أمي مصابة حقاً بالخبـــال الذي أصاب زينب أضعافه .

ذات يوم عدت إلى البيت من الدكانة ، بعد مباشرة قصيرة لشئونها . رأيت النسوة على وجه مغرب ، فوق أسطح البيوت المجاورة ، والأطفال ينصتون مفتوحي الأفواه ، وهم ينظرون إلى باب دارنا المغلق . أسرعت في خطوي فإذا بي أسمع موسيقى أجنبية ، تنبعث من قلب البيت . طردت الأطفال . وشوحت بيدي للنسوة ليعدن إلى قلب الدور . ودخلت البيت ، ورددت الباب ورائي ، قبل أن أرى مدى عصيانهم لأمري . كان بابه مغلقاً ، وكانت الموسيقى تهز الجدران هزاً خفيفاً . ورأيت أمي تنظر من ثقب الباب ، وزينب تبعدها لترى بدورها . صحت بهما ، فابتعـــدتا إلى وسط الصالة . واقتربت أنا من الباب ، ونظرت من ثقب مفتاحه . كانا يرقصان معاً . ولم أعرف لي رأساً من قدمين . أعجبني المشهد وأثارني . أرضاني وأغضبني . استدرت لأحدق في وجه زينب وأمي ، فوجدت زينب

ترقص ، وكفاها على ذراعيها تقلدان إمساكة سيمون بحامد، وأمى تضحك سعيدة لها . ياإلهى . إنها تحلم . تحلم به . تحلم معه . نظرت حولى فاقداً صوابى ، باحثاً عن شىء أقذف به فى وجهها . لكنها أسرعت بالهرب هى وأمى . وأغلقتا عليهما باب الغرفة . تنهدت فى غيظ ، وانتظرت لحظة ، ثم انحنيت على ثقب الباب ، لأرى سيمون ، وهى تنقل خطوها بشطارة مع حامد ، دون أن يدوس أحدهما على على قدم الآخر . وتدفن جانب وجهها فى انحناءة كتفه ،على صدره. سبحان مقسم الحظوظ والأرزاق ، ويا ضيعة عمرك يا أحمد يابن مصطفى البحيرى . وأسرعت بالخروج من الدار هارباً ، أبحث عن ظل شجرة ألتقط فيه نفسى ، وأفرج عما فى قلبى . أحسست أنى أحب سيمون من كل قلبى ، وأنى لم أحب أحداً من قبلها ، وأن زينب تزوجتنى ، لكنها لم تحبنى أبداً . وفكرت أنى كنت أطبق يدى على فراغ ، وأن ما كان فيهما لم يكن سوى مجرد وهم.ووجدت حزنى أكبر من أن أقدر معه على التفريج عن نفسى بالبكاء.ورحت أعزى نفسى ، بأنه ربما كان مابين حامد وسيمون ، مثل مابينى وبين زينب ، فمن يدرى حقاً ، ماذا تخبئه القلوب ، وتخفيه الجدران.

٣ ـ مذكرات محمود بن المنسي

الجمعة ١٠ اغسطس :

اليوم سافر حامد البحيرى وحده ، بسيارته الحمراء إلى القاهرة ليتعاقد على استيراد بعض البضائع التى تحتاجها تجارته فى باريس وبخاصة للأكلات الشرقية فى مطاعمه وفندقه . ولكى يرى أصدقاءه المصريين الذين تعرف إليهم فى عاصمة النور . وسوف تستغرق رحلته خمسة أيام، يعود بعدها، ليستعد للرحيل مع سيمون من الدراويش ، يوم الجمعة القادم .

قبل أن يركب حامد سيارته ، ويودع سيمون ، أوصى حامد

أخاه أحمد بسيمون . ثم أوصانى بها لتقضى خمسة أيام سعيدة جداً . وملأ حامد جيبى ، بما سوف يحتاجه تجوال سيمون من نفقات فى الدراويش والنواحى المحيطة بها . وأنا سعيد بحمل هذه المسئولية . وعلى أن أضع لها برنامج كل يوم ، وساعة بساعة ، كما كنت أفعل مع جدول مذكراتى اليومى فى البيت ، وقد ذكر لنا حامد أن بوسع أخيه أن يصحبنا فى نزهاتنا إذا شاء ، وكلما واتته فرصة لذلك. وقبلته سيمون على الطريق الزراعى ، وعانقته. وركب حامد سيارته ، وأدار موتورها ، فراحت سيمون تلوح له بمنديل أبيض ، وهى تصيح به أن يقضى أجازة سعيدة . وكان أحمـــد البحيرى مشدوهاً مما يراه بعينيه ، خجلا من الناس الجالسين على المقهى ، والذين راحوا يضربون كفاً بكف ، مستعيذين بالله من الجهل والفتنة ، وعذاب القبر .

ورغبت سيمون فى أن نسير معا ، قليلا من الوقت ، على الطريق الزراعى ، قبل أن تعود إلى البيت ، وطلبت من أحمد بلباقة ، أن لا يتقيد هو بها ، وأكدت له أنها سوف تعود بسرعة . ونقلت له رغبتها ، فأدرك ما تريده ، وحياها بأدب ، وانصرف عائدا ، وعبر القنطرة . وقالت لى سيمون إنها سعيدة بسفر حامد ، لأنها سوف تتحرر من الرسميات ، ونتعرف تعرفا حقيقيا إلى أهل الدراويش ،

وعلى الطبيعة فى بلادنا . وقالت لى سيمون ، إنه كان بودها أن تكون مع حامد فى هذه الأيام ، للتجول معه فى القاهرة ، لكنه وعدها أمس ، بعد فترة وجودهما فى بلادنا أسبوعا آخر ، سوف يقضيانه بعد سفرهما من الدراويش ، فى القاهرة ، والأقصر ، والفيوم ، والاسكندرية . وقالت لى سيمون ، إنها سوف تواجة صعوبة بالغة ، فى التفاهم مع حماتها وزينب ، بسبب ضآلة الكلمات التى تعرفها من العربية ، وندرة ما يعرفانه من اللغة الفرنسية ، وأن على ، لهذا السبب ، أن أكون قريبا منها ، أكثر الوقت ، حتى فى البيت . ووعدتها بذلك ، وأكدت لها أننى لست مشغولا بشىء آخر ، وأننى تحت أمرها دائما ، فضغطت على يدى شاكرة . إننى سعيد حقا بالتعرف إلى سيمون .

واستدرنا عائدين ، على الطريق الزراعى ، إلى الدراويش كانت سيمون ساهمة ، مطرقة الرأس قليلا ، شاردة البال . وبدا لى ، أنها تشعر الآن بأنها وحيدة ، وسط غرباء عنها تماما . وأحسب أنى رأيتها تمسح دمعة ندت ، برغمها ، بطرف منديلها الأبيض الذى ودعت به حامد ، لكنها سرعان ما رفعت رأسها ، ونحن نقترب من بيت البحيرى . وفاجأتنى بأن قالت لى ، إنها ستعتكف حتى صباح غد فى البيت ، مع

زينب وأم حامد ، لنستريح أولا ، ولتتعرف جيدا على حماتها وسلفتها، وضحكت، ثم صافحتني مودعة إلى صباح اليوم التالي . وحين دخلت البيت، أحسست فجأة بالأشياء من حولى، وبعيون الناس التي نسيتها وأنا مع سيمون ، فأسرعت فى خطوى عائدا إلى البيت .

من المؤسف ، أنى لم أبدأ فى تسجيل هذه المذكرات من قبل، يوما بيوم ، منذ وصول سيمون وحامد إلى الدراويش . خطرت لى فكرة كتابة هذه المذكرات ، ونحن فى وداع حامد . ولمت نفسى لأنى لم أنتبه إلى ذلك ، لأدون وجود سيمون فى الدراويش ، فى حدود ما أعلمه ، ما رأيته ، وما سمعته ، وما أدركه . لكننى ، والحق أقول ، كنت غارقا فى حركتهما التى لا تهدأ ، منبهرا إلى حد الصدمة بحيوية سيمون ، وبمحاولة الوعى بمغامرة حامد وراء الدراويش ، وعبر البحار السبعة . وعلى الآن أن أتذكر ما حدث فى هذا الأسبوع الذى مضى .

خلال الأسبوع الفائت ، أقيمت لسيمون وحامد ، عديد من الولائم والمقابلات والزيارات ، فى بيت أحمد البحيرى ، وبيوت الأعيان ، وبيت المأمور ، بل وفى بيت مدير المديرية نفسه .وكانت

الدعوة دائماً على غداء ، أو عشاء ، أو على شرب شاى . وكنت على الهامش فى أكثر هذه الزيارات والدعوات ، لوجود حامد بجوار سيمون دائماً ، ولمعرفة بعض الحاضرين لعدة كلمات وجمل فرنسية ، وأكثر منها انجليزية ، وهذه تجيدها سيمون أيضا .

لكن أغرب هذه الزيارات التى قمنا بها ، كانت زيارتنا لدار ابن لقمان بالمنصورة . لقد طلبت سيمون هذه الزيارة ، فدبرلها المأمور ذلك فى اليوم التالى ، وكان يوم الأربعاء الماضى . أرادت أن ترى السجن الذى سجن فيه الملك الفرنسى الأسير يوما . ورأت القيد ، والمكان، والحارس ، وذهبنا إلى حديقة شجرة الدر ، وسردنا لها ما فعلته شجرة الدر حين مات زوجها الملك . وفى الطريق ، إلى السيارة ، ونحن داخل الحديقة ، مالت سيمون نحوى ، وسألتنى :

— قل لى .. هل حقا أن السجان صبيح قد خصى الملك ؟

أجبتها بصدق ، وفى حرج بالغ من سؤالها ، الذى يشى بمدى ما يعتقده قومها فينا :

— حقيقة . لا أعرف .

فعادت تقول ·

— ما معنى كلمة « طواشى » إذن ؟

فقلت لها :

— لا أعرف أيضاً ، لكننى سأسأل .

عادت تسأل :

— حسنا . ما الكلمة التى تقابلها بالفرنسية ؟

هززت لها رأسى معبرا عن عجزى عن الإجابة ·(وسوف أحاول أن أعرف معنى هذه الكلمة) . ولعنت فى سرى هذا الشاعر الذى قال يوما ، ووصلت قولته إلى باريس :

« والقيد باق ، والطواشى صبيح » ··

وأردت أن أحدثها عن الآلاف السبعة عشر ، الذين قتلوا بأيدى قومها فى هذه المعركة ، وفى الدراويش وحدها ، وعن النساء اللاتى قدت بطونهن لمعرفة ما يحملن من ذكور أو إناث ، وعن الدجاج والبط فى الدراويش ، الذى كان يقتل بدك عصاة فى مؤخرته حتى

تخرج من العنق أو الفم ، وعن القرى التى أبيدت بأمرها على يد جيشْ نابليون . لكننى راعيت أنها ضيفة ، وأنه لاذنب فى كل ماحدث، وأنها، حين كانت تسألنى، لم يكن فى وجهها أوصوتها، مايدل على أى حقد أو سخرية . لكن من يدرى ، فهذا الوجه الأوربى يمكن أن يخفى وراءه، مالاتراه العينان، أو تسمعه الأذنان . لكن ، لماذا آخذها بالظن ، والظن إثم ذميم ؟!

فى بيت المأمور ، يوم الثلاثاء الماضى ، ومع كؤوس الشراب غير المباح، بدا حامد أكثر ما كان منذ رأيته ، على طبيعته . وراح يتحدث عن قصة حياته . هرب على قدميه من الدراويش ، سار على قدميه ، وتسلق القطارات خلسة ، وعمل صبياً فى حرف كثيرة ، أياماً لا أكثر ، ومن بلد إلى بلد ، حتى انتهى به المطاف إلى الإسكندرية . وأتيح له أن يعمل غاسل أطباق فى إحدى البواخر ، وطوف معها فى الموانئ والأقطار والبحار ، ثم انتهى به الطواف إلى العمل كخادم فى مقهى جزائرى بباريس . ولاحظت أن الكل كان سعيداً بما كان حامد يحكيه .

وأمس ذهبت للجلوس معهما ، أمام العشة والفيلا الأنيقة ، على

شاطىء البحر . وكان حامد وسيمون ممددين أحدهما بجوار الآخر ، وقد رفع حامد نصفه الأعلى ، متكئاً على مرفقيه، بينما وضعت سيمون رأسها على كتفه ، وراحت تحاول تخمين البلد المقابل لمكانها ، على الشاطىء البعيد الآخر ، شاطىء لايرى . وترنو إلى حامد راضية ومفتونة ، ومن عجب بغير خجل من ماضيه . كان البحر هائجاً وكانت الرايات السوداء مرفوعة على طول الشاطىء . وأثار ذلك حامد ، فأبعد رأس سيمون عن كتفه برفق، ثم وثب عارياً ، وارتمى فى مياه البحر ، وأخذ يلاطمها بساعديه . صاحت سيمون عندئذ :

— أوه ... هامد .

أردت عندئذ أن ألحق به ، وأن أدعو حارس البحر لنجدته ، لكنها أمسكت بى قائلة .

— لاتخف عليه . إنه هكذا . وهو ماهر فى العوم . أمهر من سمكة .

وراح حارس الشاطئ ينفخ فى صفارته ، ويصيح محذراً ، ثم وضع طوق النجاة حول عنقه ، وأوشك أن يلحقه ، ليأتى به من وسط الأمواج الهادرة ، المتلاطمة ، لكنه رآه عائداً ، فراح يقذف

بكلمات محتجة، ومنحته سيمون ريالا فضياً ، فابتسم ، ومدح لها زوجها بأنه سباح ماهر . وطلب منها أن تمنعه من أن يصارع البحر فى المرة القادمة . فالبحر خائن وغادر ، مثل الموت وعزرائيل. وذكر لها (بالمناسبة) أن عزرائيل يقيم عادة فى البحر ، حين لاتكون وراءه مهمة لقبض روح أحد . لكنه يحلو له ، أحياناً،أن يتسلى عن يقتحمون عليه بيته ، عندما تكون الأمواج غاضبة ، لتعزف له الموسيقى التى ينام على صوتها . ضحكت سيمون كثيراً ، وأنا أترجم لها كلامه، الذى بدا أنه يؤلفه لساعته . ونفحته ريالا فضياً آخر . وكان حامد قد أتى يزفر قطرات الماء المتساقطة من شعر رأسه وحاجبيه . ثم ذهب إلى العشة ليأخذ دشاً من المياه العذبة . وقلت لسيمون بالفرنسية ، أن حامد قاسى كثيراً وتعذب . كان ماثلا أمامى ، ما كان يحكيه لنا من مغامرة حياته . فابتسمت سيمون وقالت لى :

— بل خبر الحياة .

وعاد حامد ، وجلس سعيداً ، يأكل بضع بيضات ، وقطعاً من الجبن الرومى . وراحت سيمون تصب له من «الترموس» كوباً من الشاى الساخن . باريسى هو حقاً ، لولا أنه أسمر . وشعره غير

مسرح تماماً ، وعيناه عسليتان ، وأذناه ، إحداهما مثقوبة من طرفها العلوى ، ومبتعدتان عن استدارة الشعر وراءهما ، كأنهما تنصتان أبداً ، وتميان أبداً ، مع عينيه الغائرتين تحت الحاجبين الكثيفين . ومصرى هو ، لولا هذه اللمعة النضرة فى جلد وجهه ، وبشرته المحمرة حتى النحر ، ربما من كثرة ما شرب من خمر ، وأكل من لحم الخنزير ، ووفرة الحمامات الساخنة والباردة التى أخذها فى سنوات عديدة ، وحرصه الدائم على تناول الخضروات والفواكه الغنية بالفيتامينات . لا يخلو قلبى من حسد له ، على الجسد الحى الفتى الذى يملكه ، والتكامل النفسى الذى أحسه فيه ، وعلى سيمون التى أحبته . أبرر لنفسى تفوقه بأن هذا هو حظه ونصيبه ، عندما اختار المغامرة طريقاً لحياته ، طريقاً كان يمكن أن يقذف به ، غالباً ، فى هاوية الفقر والمرض واليأس . لكننى لا أشعر نحو ما هو فيه ، هو ابن الدراويش بأى عدل . فأهل الدراويش .. ليس من أحد ، من أبناء الدراويش ، لا يعرف ما نحن حقاً فيه ، منذ جاء إلينا حامد ، ومنذ رأينا سيمون .

أمس ، حين عدت معهما من الشاطئ ، وغادرتهما إلى بيتى ، وجدت فى انتظارى خطاباً من كلية الطب ، يخطرنى بقبولى كطالب ، وبالمجان لتفوقى . وقد نسيت اليوم أن أذكر لهما ، أو لسيمون على

الأقل ، هذا الخبر . وأرجو ألا أنسى ذلك غدا . وإذا أفلحت في مسعاي لديهما ، سأغير خططي لمستقبلي . فمنذ قدمات ، وأنا أحلم بالحياة في باريس ، والدراسة في باريس ، لأحصل على أعلى شهادة ممكنة ، ومن باريس : الدكتوراه . بوسعهما أن يحصلا لي على منحة ، إذا أرادا أن يقدما لي جميلا . بوسعهما أيضاً أن ينفقا على في باريس ، وسوف أكون ممتنا لهما مدى الحياة . وأنا بعد على استعداد للعمل لدى حامد في باريس ، في فندقه ، أو في أحد مطاعمه ، في أي عمل يقبل أن يكلفني به . فمعرفتي بالفرنسية والانجليزية لابأس بها ، وسوف تتحسن كثيراً . لكن على أن أكون على حذر : ينبغي ألا أطلب ذلك صراحة . المهم أن ترضى عني سيمون ، وتعجب بي . وإذا أحبتني ، لامانع لدي . وعندئذ ستعرض هي بنفسها ذلك علي ، وستحدث حامد في الأمر . وربما لم تكن في حاجة إلى معونته . فهي صحفية ، ومثلها له نفوذ في باريس ، وله مسالكه وطرائقه . وعلى إذن أن أكون على حذر ، وطيباً ، ذكياً وودوداً . وبخاصة هذه الأشياء الأخيرة : الطيبة ، والذكاء ، والمودة ، التي لا أشعر بالحاجة إلى التعامل بها ، هنا مع أهل الدراويش .

السبت ١١ أغسطس :

اليوم . كان هو اليوم الأول ، الذى نقضيه معاً ، وحدنا ، خارج الدراويش ، سائرين على أقدامنا . ارتديت قيصاً وبنطلوناً فاخرين لهذه المناسبة ، فلامتنى سيمون لإتلاف هذه الثياب . وطلبت منى أن ألبس ، فى هذه الأيام ، بنطلون رحلات ، وقيصاً غامقاً بنصف كم . أدهشنى مظهرها البسيط للغاية. كانت تجمع شعرها خلف « بونيه » بحر . وترتدى بلوزة قطنية بنصف كم ، وبنطلوناً قصيراً ، أقصر من السروال الداخلى الذى تلبسه أمى ، وكانت الكاميرا معلقة على كتفها .

تركنا الدراويش وراءنا،وراحت العيون تحدق فينا ، كالعادة ، تحاصرنا من فوق الأسطح ، ومن وراء فتحات الأبواب والنوافذ .

ورأت سيمون ، خارج البلدة ، شجرة جميز عتيقة باركة عند ساقية مهجورة ، منذ أن زحفت البيوت المتكاثرة ، كل عام ، على المزارع . التقطت سيمون صوراً لشجرة الجميز ، من أكثر من زاوية ، وتسلقتها بمرح ، وترددت فى اللحاق بها ، بسبب عدم ملاءمة ثيابى . ثم جسنا فى غابة من البوص والدمار الكثيفة ، حتى أطللنا

على حافة المياه العطنة الراكدة ، وسرنا على الحافة محاذرين من من السقوط ، حتى خرجنا من وسط الغاب الوحشى المقرف . وجود سيمون معى جعلنى أحس بمعانى الأشياء أكثر من ذى قبل ، بروائحها ، وألوانها ، وما هى عليه . فعند مدخل الغاب كان الأولاد قد تركوا بقاياهم ، وتكفلت حرارة الشمس بحمل روائحها فى ذرات الهواء .

ورأت سيمون النهر ، لأول مرة يمر بجانب بلدنا ، على مبعدة قريبة ، فصاحت بدهشة ، وعاتبتنى لأننى لم أجىء بها لترى نهرنا العظيم ، طوال الأيام الماضية . وراحت تقارن بين زرقته واتساعه ، ولون مياه السين البنى ، وضآلته ، فأخبرتها أن ماءه هو أيضاً عذب المذاق جداً . فأسرعت تخلع الكاميرا عن كتفها ، وبدأت تفك أزرار قميصها . سألتها :

— ماذا تريدين أن تفعلى ؟

فقالت ببساطة :

— سأقطع هذا النهر سباحة ثم أعود .

فطلبت منها ألا تفعل ذلك . فجفلت ، وسألتني عما إذا كان في نهرنا تماسيح ، فقلت لها إن التماسيح في الجنوب ، خارج وطننا ، وتحجزها الشلالات والقناطر والسدود . ثم أخبرتها أن الفلاحين والأطفال يصابون بالأمراض ، بسبب مياه النهر ، فعبرت لي عن أسفها لذلك . وراحت تلتقط صوراً للنخيل على الشاطئين ، وللطيور ، وأشجار السنط والتوت . ثم مالت بي إلى حقل قطعنا منه بعض خيارات ، وغسلناها من ماء الترموس الذي تحمله ، مع حقيبتها التي رفضت أن أحملها عنها .

وجلسنا تحت ظل شجرة ، في أرض « الفار » . وبدا أن الناس جميعاً في المزارع قد رأوها في الدراويش ، وألفوها . وربما انتظروا أن تأتي إليهم في أرضهم ، فلم يظهروا أي دهشة لمرآها ، ولا لوجودي معها ، وأسرعوا مقبلين علينا ، وأتونا بالمزيد من القثاء والخيار . وشووا لنا على النار كيزاناً من الذرة . وتحدثت معهم سيمون ، وتحدثوا معها . كانوا سعداء بها حقاً . ولم يخل حديثهم مع بعضهم ، بلغة لا تعرفها هي ، ولم أترجمها أنا ، من إظهار الأسف والأسى بسبب نسائهم ، ومن إظهار بالرغبة فيها . لكن الأمر لم يزد منهم على مجرد الكلام . تعبت كثيراً في هذه

الجلسة ، لأننى قمت بنقل الكلام الذى قالته ، ومعظم الكلام الذى قالوه . وأركبوها حماراً بلا بردعة ، وأخذت لها صورة معه، وصوراً معهم . ثم صافحتهم شاكرة لهم . وراحت تحدثنى فى الطريق عنهم . قالت : إنهم ، برغم فقرهم ، وسوء صحتهم ، كرماء . ثم سألتنى :

— لماذا لا تستخدمون الآلات فى مزارعكم ؟

فأجبتها بما استطعت ، عن الجهل ، وكثرة السكان ، وقلة رأس المال ، والاستعمار الانجليزى . فعادت تعبر لى عن أسفها وتعتذر ، حين رأتنى منفعلا بما أقول ، وكأنها هى السبب فى كل ما حدث ، وكأنها نكأت فى قلبى جراحاً ، قديمة ومنسية .

بلغنا مشارف البندر . وبدت لى طوال الطريق كسائحة ، تكتشف من الدنيا مالم تكن تعرف ، وتتصرف كطفلة ترى العالم لأول مرة ، ولا تكف عن الحركة ، والمرح والوثب ، والكلام . وتغدينا فى البندر ، فى مطعم « الرهوان » : سمكاً مقلياً ، وشوربة سمك ، وأرزا مطبوخاً بها ، وصلصة . وجاءها صاحب المطعم بنفسه ببيرة أسوانية مثلجة ، فشربتها على الغداء حتى

انتشت . وأجبرتني على شربها معها ، لأول مرة ، فسكرت سريعاً ، وبدأت تتساقط عنى كل الأقنعة. فقلت لها إنى أحبها . فضحكت، وقالت دون انزعاج :

— مسيو مهمود . أنت سكران · قم بنا نرجع إلى الدراويش.

خجلت من نفسي · لكننا لم نعد إلى الدراويش . ذهبنا إلى مقهى على النهر ، يطل على ميناء قريب للقوارب ، والسفينة تحمل الركاب إلى المصيف . وجلسنا في الشرفة المستديرة بالطابق العلوى ، ورحنا نحتسى مزيداً من البيرة . وبلغت حداً من السرور والخفة ، جعلها ترفع من أمامى زجاجة البيرة ، وتسكبها فى النهر ، قائلة :

— مسيو مهمود · معذرة . هذا يكفى ·

وغادرنا المقهى ، وكانت الشمس تنحدر في الأفق ، وأبدت سيمون رغبتها فى العودة إلى الدراويش عن طريق النهر . فركبنا قاربا صغيراً ، أحسن قارب فى الميناء . وكنت فى حالة غير صالحة للتجديف ، فتناوبت سيمون التجـديف مع صاحب القارب . ثم استلقت فوق مؤخرة القارب على ظهـرها ، وراحت تتأمل وراء الشاطئين استدارة الأفق ورحابته . ثم الـكفأت على بطنها .

وراحت توجه الدفة الصغيرة ، وتداعب زبد الماء المنساب . ولما كنا فى وسط النهر ، وكان الماء جارياً ، فلم أنبهها محذراً إياها من جراثيم البلهارسيا . اكتفيت بمراقبتها ، وقد استيقظت كل خلايا جسدى ، ولعب الهواء برأسى . لكننى لم أتجاوز مجرد التخيل استسلمت فقط لأحلامى بها ، ومعها ، فى صمت رهيب .

لوحت لى سيمون مودعة عند باب بيت البحيرى . وكان على أن أعود إليها بعد ساعتين لتفرجنى على أشياء لديها ، ولنسمر بواسطتى مع عائلة البحيرى . وعندما عدت إلى بيتى واجهتنى مشكلة رائحة البيرة فى فمى ، فأسرعت بغسل فمى بكربونات الصودا ، ومضغت ورقة نعناع ، وتمشيت ، ثم أسرعت بمغادرة البيت ، لأمشى قليلاعلى الطريق الزراعى ، وحتى لايشم أحد رائحة البيرة فى فمى ، وبرأسى نشوة لم تزل باقية .

وذهبت فى الموعد إلى بيت البحيرى . ففتحت لى زينب الباب وقالت ساخرة :

— تفضل .. السنيورة على نار .

دخلت غرفتها بعد أن طرقت الباب ، وسمعتها تأذن لى بالدخول .

كانت تدير اسطوانة موسيقية . وقد جلست إلى النافذة ساهمة ، وهي تكتب في رسالة ، كلفتني بإرسالها ، في صباح الغد من البندر إلى باريس ، ثم أخذت تفرجني ، والموسيقى تعزف ، على «ألبوم» صور ، كان رأسانا متقاربين ، إلى درجة شممت معها عطر الشانيل ينفذ إلى قلب رأسي ، ويثير في صدري مشاعر مرهفة . وحاولت أن أبتعد عنها فلم أستطع ، حتى فتح الباب فجأة ، دون أي تنبيه. ورأيت أحمد بن مصطفى البحيري واقفاً على الباب ، يقول لي :

— الله الله . والله عال . امش اخرج ياولد .

سألتني ماذا يقول ، فقلت لها :

— إنه يخبرني بأن أبي يريدني .

فقالت لي :

— حسناً . اذهب . ثم تعال .

تحركت نحو الباب فعلا لأذهب . وحاد أحمد عن مدخله فعلا لأخرج . لكنه فجأة أمسك بي قائلا :

— انتظر . على الأقل ستترجم لنا .

فنظرت إليه ، كانت فى عينيه نظرة آمرة وراجية . واستدرت ناحية سيمون ، وذهبت إليها ، فسألتنى :

— لم لم تذهب إلى أبيك ؟

— قال لى مسيو أحمد أن أبى يريدنى فيما بعد . عندما أعود من هنا .

فنظرت إلى سيمون بشك ، ثم إلى أحمد . ثم تجاهلت الموقف كله ، وقالت لأحمد ، وأنا أترجم له ما تقوله :

— إنها تريد أن تتمشى ، فوق السطح ، فى ضوء القمر .

فقال أحمد :

— أمرك ياست الكل .

كان السطح قد سكب عليه كمية من الفنيك والكولونيا ، بعد تنظيفه ، وإغلاق الباب على الدجاج. فبدت الرائحة كأنها فى صيدلية، أثناء انتشار مرض وبائى . وفرش حصير بسطت فوقه سجادة ، ووضعت وسائد . وجلست سيمون فى شبه الضوء القمرى الأصفر .

وجلست أنا بجوارها ، وجلس أحمد بجوارها من الناحية الأخرى . وبمقابلنا، جلست الحماة وزينب ، تقلدانها فى طريقة أكلها، وتبتسمان إحداهما للأخرى ، فى سخرية واضحة . لا أعتقد أنها كانت خافية على سيمون . ومن حولنا ، كانت عيون الجيران ، تحدق عبر أكوام القش والحطب ، من فوق الأسطح الملاصقة ، والقريبة ، والبعيدة .

وانتهينا من العشاء ، ففتحت سيمون مظروفاً كبيراً به مجموعة من الصور الخاصة بعائلتها ، وراحت تريها للحماة ، ولزينب، ولأحمد، ولى . كانت الصور لها مع والديها . ولها مع حامد ، ولحامد معها ، فى البيت ، والمدرسة ، والفندق، والمطاعم ، والشوارع ، وفى ميـــدان الشانزليزيه ، وشارع البوليفار ، وبرج إيفل، والمتاحف. وتوقف أحمد عند صور الفندق والمطاعم طويلا . بينما توقفت زينب محدقة فى صور الباريسيات اللاتى يظهرن فى خلفية الصور . أما الحماة ، فقد احتفظت طويلا بصور حفيديها : البنت، والإبن . بل راحت تطرى وسامتهما، وجمالها. فأعطتها سيمون واحدة تجمع بينها وبين حامد وابنهما وابنتهما. وكانت سعيدة لفرح حماتها بهذه الصورة ، ولأنها طلبت من أحمد أن يضعها غداً فى إطار ، ويعلقها بالصالون ، تذكاراً للحفيدين . وأحسب أننى شممت رائحة غير طيبة ، وأنا أراقب انفعالات أحمد

البحيرى،وزوجته زينب . كان الحسد واضحاً فى حركاتهما وعيونهما لايخفى . ورجوت ألا تحس به سيمون التى أعتقد أنه لاعهد لهـــا بمثله ، على الأقل بهذه الصورة .

وحدث أن سيمون جلست ثانية فخذيها فوق ساقيها،المطويتين بجانبها وتحتها . وفجأة صاحت بى معاتبة :

— مسيو مهمود . هل داعبت قدمى ؟

ارتبكت لحظة . ونظرت إلى أحمد الجالس فى الناحية الأخرى ، وكانت ساقاها فى ناحيته . وقلت لها مبرئًا نفسى :

ـــ لا . لم يحدث .

عند ئذ قالت سيمون لى ، وهى تنظر إلى أحمد :

ـــ قل له : إننى مخلصة لزوجى .

فنظرت إلى أحمد ، ثم إلى زينب ، ثم إليها ، وقلت لها :

ـــ لا أستطيع .

فقالت :

ـــ لم ؟

فقلت لها :

ـــ زوجته ستعرف .

فقالت :

ـــ أنت حساس جداً .

وفاجأتنى ، بأن التفتت إلى أحمد البحيرى ، وقالت له بلهجتنا كلمة لم أسمعها منها من قبل ، ويبدو أن حامد كان يقولها، أحياناً، لابنه ، أو ابنته . قالت دون أن تعدل من جلستها :

ـــ عيب .

التقطت زينب الكلمة . . وانتفضت واقفة فوق السطح ، ناظرة إلى زوجها ، وأرادت أن تتكلم ، فتضاربت ألفاظ لم تنطق بها فى فمها . وولت هاربة . وبان الخجل على أحمد . فنهض مستأذناً لينام . وعندما اختفى ضحكت ، وقالت لى :

ـــ هذا أفضل . لتكف هى عن الجرى وراء حامد ، ويكف هو عن مماكستى .

ولم تكن الحماة ، بسبب ثقل سمعها ، قد وعت شيئا مما

يحدث . ونهضنا عائدين إلى أسفل . وودعتها ، وانصرفت عائدا إلى بيتي .

الاثنين ١٣ اغسطس :

لم أتمكن من كتابة يومية أمس . كنت مرهقا إلى أبعد حد . أخذتني سيمون أمس إلى شوارع القرية . ودخلت بي أكثر من بيت . وتحدثت إلى الناس طويلا : الرجال ،والنساء ،والصبية . لم أكن أنا الذى أقودها ، كانت هي التي تحركني ، في بلدي . بدا لي من كثرة ماالتقطته من صور ، وأجرته من أحاديث ، أنها ستكتب للصحيفة التي تعمل بها في باريس عن الدراويش ، وأهل الدراويش . وذهبنا إلى المقهى . وشربت زجاجة سباتس غير مثلجة . وقالت لي : إنها ستكتب فعلا عن الدراويش عدة تحقيقات صحفية . ثم أخبرتني أن سيدة جاءت إليها قبل أن أقابلها ،أمس ، وسألتها عن علاج لعيني ابنتها ، فأسرعت إلى حقيبتها ، وجاءت بقطرة ، وقطرت منها في عيني الطفلة الصغيرة . وقالت لي : إن رأس الصغيرة كان قذرا جدا ، فأخذتها إلى الحمام ، وغسلت لها رأسها بالماء ، ثم بالشامبو . وصاحت سيمون في دهشة :

ـ تصور مسيو مهمود. كانت فى رأسها حشرات كثيرة ، صغيرة جدا .

غمرنى الخجل من الدراويش ، فقلت لها :

ـ لابد أن أهلها فقراء جدا .

فصاحت محتجة :

ـ ماذا تقول مسيو مهمود ؟ الماء عندكم كثير جدا . وأين النيل مسيو مهمود ؟

ولما عدت البيت ، وتغديت ، حدثتنى أمى عن خيبتى لضياع وقتى مع الفرنساوية ، وقال لى أبى : إنها ستفسدنى ،فخرجت غاضبا وجلست على المقهى ، حتى طلبنى العمدة بعد الغروب . فذهبت إلى الدوار مسرعا .

وجدت سيمون جالسة عنده ، مع زوجته ، وحريم الأعيان . وكان لابد من وجودى وسط النسوة، لأقوم بدورى كمترجم .وطالت السهرة إلى مابعد منتصف الليل . بين أكل وسمر وشاى ، وأغان

حزينة تمزق الكبد . ورقصت الست نفيسة ماشطة القرية ، وقابلتها وندابتها ، لسيمون ، وغنت أغنية فرح ، وأغنية حمل ، ومرثية فى قتيل . وأعجبت سيمون بأداء المرثية ، فرحت أترجم لها كلماتها وهى تكتب ، بلهجة مؤثرة ، تحاول أن تصنع شربانا من الفسيخ .

وفى الليل ، بعد منتصف الليل بكثير ، قام العمدة بتوصيلها معى إلى بيت البحيرى . وسألتها فى الطريق،عما إذا كانت لها رغبة فى أن تذهب غدا إلى المصيف بواسطة قارب،فقالت لى إنها لن تفعل ذلك غدا (اليوم) وإنها ستنفذ هذه الفكرة، عندما يكون معها حامد . وذكرت لى أنها سوف تعتكف غدا فى النهار ، فوراءها عمل كثير ، ينبغى أن تنجزه . فعليها أن تكتب رسائل ، ومذكرات . وتدون بعض الملاحظات ، وطلبت منى أن أحضر فقط للغداء معها ، ومع أحمد وزينب وحماتها ، وكنا قد وصلنا إلى بيت البحيرى ، ففتحت لنا زينب الباب ،وحين دخلت ،التفت لنا زينب ،وقالت :

ـ تصبح على خير ياعمدة .

ثم أغلقت الباب فى وجهينا ، فراح العمدة يسبها طوال الطريق، ويسب زوجها أحمد ، إلى أن افترقنا .

ذهبت اليوم ناحية البحيرى، قبيل الموعد بساعة ، ومررت فى طريقى على المقهى وجلست به ، إلى أن يحين موعد الغداء ، ثم توجهت إلى بيت البحيرى وجدت جمعا من النسوة والأطفال يقف أمام البيت ، وفى مدخله ، وصالته . توقفت لأرى ماذا يحدث ، فوجدت سيمون تضع قطرة فى أعين الأطفال ، واحدا بعد الآخر . لمحتنى فصاحت بى :

ــ مسيو مهمود . تعال وساعدنى . لقد تعبت منذ الصباح ، ولم أكتب شيئاً يذكر .

رحت أساعدها فى عجب من أمرها . تساءلت بينى وبين نفسى: من أين جاءت بكل هذه الكمية من الزجاجات الصغيرة المصفوفة بجانبها . وأخبرنى أحد ، وكان جالسا يضحك فى سخرية من حال سيمون ، أنها كلفته اليوم بشرائها من البندر ، عندما جاء إليها أولاد الحرام من النساء والأطفال .

واقترب موعد الغداء ، وكنا قد انتهينا من مهمة وضع القطرة فى العيون . فزجر أحد المتطفلين خارج الباب ، وأغلقه . وأخذت

زينب تضع أطباق الطعام على المائدة. وأكثرها طهو مسلوق ، كالعادة ، وطرق أحمد باب غرفة سيمون يدعوها إلى الطعام . ولأن سيمون لم تكن قد استطاعت أن تنجز اليوم ما عليها أن تكتبه أو تدونه ، فقد اعتذرت عن برنامجها في الأول ، وتركتها على موعد مع صباح اليوم التالى .

٤ - الحصار

ام احمد :

حدث ذلك فى الصباح . كان اليوم يوم اثنين . جاءتنى صاحبات لى من سنى ، كلهن ينشدن حسن الختام : أم خليل ، وأم إبراهيم ، والحاجة نفيدة ، والست نظيرة ، وسنية هانم . فيهن من أعطاها الزمان البنين والمال ، ومن حرمها من الزوج ، ثم من الولد ، وعاشت فى شر حال . كنا نجلس معا على سطح الدار ، تاركات ، فى الحر ، صالته الرطبة الظليلة . بسبب الست سيمون هانم الفرنساوية حتى لا نقلق بالها ، ونعكر دمها ، ونتركها فى جو هادئ . كانت صاحباتى يردن رؤية زوجة ابنى حامد الفرنساوية ، ويجلسن معها ،

ويتحدثن إليها ، لـكن أوامر ابنى حامد ، وأحمد من بعده ، كانت مشددة بعدم الاقتراب منها ، وبأن نتركها فى حالها ، إن شاءت جلست معنا ، أو خرجت من البيت ، أو أغلقت عليها الباب . وضربت الحاجة نفيده صدرها بيدها شاهقة ، وقالت :

ـ ياحبيتى يا أختى . منذ متى تتحكم النساء فى الرجال ؟

فقالت الست سنيه هانم :

ـ أصلها ، ياأختى فرنساوية ، خوجاية ، وكل بلد ولها سلو ، وكل ناس ولهم حال.

وقال الست نظيرة :

ـ لـكن ، كيف؟ هو اسم النبى حارسه وضامنه ، حامد ، ليس منا . كيف يتركها هكذا تعمل ماتريده ؟

وقالت أم خليل :

ـ وتدور ' فى البلد ، على حل شـــعرها ، فى حوارى البلد والغيطان . مع الولد ابن المنسى الخولى . حتى أنهم شافوها تشرب الخمرة فى البندر .

فقالت لها الست سنية هانم :

ـ مثل زوجها حامد . ثم أنها نشأت على ذلك ، ياناس .

وتكلمت أم إبراهيم فسألتنى :

ـ والست سيمون ، اسم الله عليها ، ما الذى تعمله الآن ؟

فقالت لها : انها تكتب لأهلها فى فرنسا، وانهم يقولون، أيضا ، انها تكتب لجرائد بلادها عن الدراويش .

فمصمصت صاحباتى بشفاههن . وقالت الست أم خليل :

ـ عشنا ، وشفنا . نفضح على آخر الزمن فى الجرائد .

وقالت الست سنية هانم :

ـ عينى علينا . لم نذهب إلى مدرسة . ولم نعمل مافى نفسنا ، ولو مرة واحدة . وهاهى الوحدة منا تعيش مثل الميته ، إن كانت ميسورة ، أو كانت محرومة .

فقالت الست نظيرة :

ـ حياة والسلام . وفى النهاية ، حسن الختام .

سألتنى الحرباء أم خليل ، عن سيمون ، زوجة أبنى :

ـ هل هى مسيحية مثل أهلها الخواجات ، أم أنها أسلمت ، وصارت على ديننا ؟

فقلت لها ما قاله أحمد لى،من أنها بقيت على دين أهلها .فعادت تسألنى بخبث :

ـ والولد والبنت؟ هل سيكونان مسلمين مثل حامد، أم مسيحيين مثل أمهما الفرنساوية ؟

فقالت زينب ، زوجة ابنى أحمد ، باجتهادها الخاص ، وهى تبتسم :

ـ الولدسيكون مسلما كأبيه،والبنت ستكون مسيحيةمثل أمها .

وضحكنا جميعا لما قالته . وزعمت زينب أن حامد ابنى وزوجته سيمون قد اتفقا على ذلك، فثرت فى وجه زينب قائلة :

ـ كيف تكون ابنتنا؛ وهى من لحمنا وصلبنا ، مسيحية ؟

عندئذ قالت أم خليل :

ـ أنتم والله لاتعرفون المجوة من الطوب الأحمر .تخمين تقولونه

وأنتم لاتعرفون أى شىء . طيب . ومن الذى قال له أن يترك بنات المسلمين الطاهرين ، ويتزوج بمسيحية وخوجاية ؟ !

شعرت بأن دمى يغلى فى رأسى ، غيظا من حامد ،ومن أم خليل وسألت الست نظيرة ، زوجة واعظ المسجد ،عن حكم الشرع فى هذه المسألة :

— هل يبيح للمسلم أن يتزوج من مسيحية ؟

فقالت ابنة الأصول :

ـ عهد الله يا أختى . هذا صحيح . الشرع يبيح للمسلم أن يتزوج بمسيحية .

فقالت أم خليل فى الحال :

— إننى أعرف . هانى لما ، أنت وزوجك ، فتوى ، تحلل الحرام ، وتحرم الحلال .

ثم قالت الست نظيرة :

ـ لكن الله أيضا قال : إن المسلمة أحسن للمسلم من غيرها . أنا سمعت الشيخ يقول ذلك ، بأذنى هاتين ، من عدة أيام .

ثم هونت الست نظيرة علينا الموقف ، فقالت :

ـ دعونا من هذه السيرة ، وحياة النبي ياجماعة .

وطالت بنا الجلسة على السطح . ثم انصرفت صاحباتى ، لأن الست سيمون هانم لم تغادر غرفتها بعد ، منذ طلوع الشمس . ولو انتظرن قليلا ، لرأينها مثل حكيمة المستشفى ، وهى تعالج عيون النساء والأطفال ، وتأمر وتنهى ، ويسمع لها أحمد ابنى ، على طوله وعرضه ، ويطيع . وقد رحت أراقبها فى دهشة من أمرها ، وأسأل نفسى :

« هل تزوج ابنى حامد من رجل مثله ؟ »

وكانت زينب تسب وتلعن ، والست سيمون لاتعرف أنها تشتمها هى ، لأنه سيكون عليها أن تنظف البيت من جديد ، من آثار أقدام النساء والأطفال ، ومن أجل سيمون وحدها ، بينما تغلق هى على نفسها باب غرفتها . وكان أحمد جالساً كالحيوان الأبكم ، لايجرؤ على أن يقول لسيمون كلمة وحدة ، يوقفها بها عند حدها ، فلم يكن بيتنا يوما عيادة للمرضى .

عند العصر والست سيمون جالسة فى غرفتها ، تغلق على نفسها الباب ، جاءتني الست نفيسة القابلة ، وجلست معى على السطح وراحت تهمس فى أذنى بكلام أزعجنى وأفزعنى ، قالت لى :

ـ سيمون ، زوجة ابنك حامد ، لاتحلق شعر جلدها ، تحت الإبط ، وبين الفخذين .

وجدت فى كلامها شيئاً من الصحة ، فقد رأيت الشعر بعينى ، على ضعفها ، تحت إبطيها ، وهى تأكل معنا . وقلت لها ، إنى لا أصدق أنها لاتنزع أيضا ذلك الشعر الآخر ، بتراب الفرن ، أو بالتراب الأحمر ، أو حتى بحلاوة العسل الأسود ، أو السكر المعقود بالليمون . فقالت لى الست نفيسة :

ـ الماء يكذب الغطاس . وها هو البئر وهاهو غطاؤه .

سألتها :

ـ ماذا تقصدين ؟

فلم تجبنى ، لكنها قالت لى أيضاً :

ـ سيمون زوجة ابنك حامد ، الذى يشترى ، بماله وشبابه ، ألف أنثى مثلها ، لم تختتن حتى الآن ، مثل بقية النساء ، بل مثل بناتنا الصغيرات .

فسألتها :

ـ كيف عرفت ؟

فقالت لى وهى تشوح بكفها :

ـ هذا هو الحال فى بلادها .

فجعلت نصفى عاقلا ، ونصفى مجنونا ، وقلت لها :

ـ مادام هذا هو الحال فى بلادها ، ومادام حامد يقبل ذلك ويرضاه ، فهو وما يحبه ويهواه .

عندئذ اقتربت الست نفيسة من أذنى قائلة :

ـ اسمعى ياخالتى . المرأة منا إذا لم تختتن ، تصبح هائجة ، مثل القطة ، تطلب الرجال ، ولا تشبع أبدا . ثم أنها ترهق رجلها كل ليلة ، بل وتخونه ، كلما أتيحت لها الفرصة . وسيمون قد فعلت ذلك ،

ولابد ، مرات كثيرة قبل زواجها من حامد ، وبعد زواجها منه .

ثم سـألتنى :

ـ انظرى بعينك . ألا ترين كيف يجرى ابنك أحمد وراءها ، هو ومحمود ابن المنسى الخولى ؟ إنها أيضاً تضحك لكل الرجال ، وتدخل كل البيوت ، وتجلس على المقهى ، وتشرب الخمر التى تفسد الرجل نفسه ، إذا عرف الطريق إلى شربها .

لم أرد أن أصدقها . رحت أؤكد لها ، أن زوجة ابنى ، لابد وأنها قد اختتنت وهى طفلة ، أو بعد أن تزوجت من حامد ، فحامد ابنى لا يقبل أن تكون زوجته فى حالة كهذه ، تستسلم لكل الرجال ، فضحكت نفيسة ، وعادت تقول لى :

ـ الماء يكذب الغطاس .

سـألتها :

ـ كيف ؟

فقالت :

ـ نكشف عليها ولا درى ولا من شاف .

فقلت لها خائفة :

ـ وإذا علم ابنى حامد . ماذا سيفعل؟

ـ لن يعرف . سيمون امرأة مثلنا ، وستخجل أن تقول له ماحدث منا . ثم أننا سنهون عليها الأمر ، ونقول لها لماذا فعلنا معها مافعلناه .

أقنعتنى نفيسة،ودخل كلامها إلى رأسى .فأخذت معها موعداً فى الليل ، حين يكون أحد فى المسجد يصلى، قبل أن يذهب إلى المقهى، ليسهر مع رجال الدراويش ،وطلبت منها أن تحضر معها أم خليل، وأم إبراهيم ، ولاتتحدث مع أحد سواهما . وتكفلت أنا بزينب . وكنت موقنة أنها ستوافق ، لأننى أعرف أنها تغار من سيمون ، وأنها سوف تفرح ، بأن ترى فيها مثل هذا اليوم .

زينب :

بدت لى الحكاية مثل لعبة الاستغماية . قلت لنفسى:
إن حامد إذا عرف ماحدث منا مع سيمون ، فلن يكون بوسعه أن يصنع شيئاً . سيغضب قليلا ، ويرضيها ، وينسى ماحدث . لكنه سيعرف أن زوجته ليست أفضل منى ، ولا أنظف ، وأن المصرية خير من الخوجاية ألف مرة . وسيعرف أيضاً أحمد ، أنى أفضل من سيمون الخائنة اللحم والعظم ، وأنه ينبغى أن يقبل يديه لحصوله على مثلى ، وهو الفقير الجاهل بجوار أخيه حامد .

وحتى إذا رحل حامد بسيمون غاضبا ، ففى ألف داهية هو

وماله ، وأستريح من عذابى بسيمون ، وبه ، ومن الجرى تحت أقدامهما كالخادمة ، ويعود إلى أحمد ذليلا وخانعا ، تحت قدمى ، كل ليلة .

كان أحمد قدذهب إلى المسجد ليصلى العشاء . وكنا قد اجتمعنا: أنا ، وحمانى ، والســـت نفيسة ، وأم خليل ، وأم إبراهيم ، فوق سطح البيت .

وكانت هى، الفرنساوية، ماتزال فى غرفتها، تستمع إلى صندوق الموسيقى ، وتكتب ، وترقص . رأيتها مرات من ثقب الباب المغلق بغير مفتاح . ثم تأكدت من ذلك، عندما ذهبت إليها، قبل ساعة ، بالشاى. كانت تكتب وتكتب مثل الأفوكاتو . كنت أكرهها من قلبى ، وأحسدها على ماهى فيه . حظها من الدنيا خير من حظى ، وزوجها أفضل من زوجى . وولداها الاثنان، فقط، أفضل فى الصورة من أولادى الخمسة . وحان الوقت الذى أشفى فيه غليل نفسى ، وأبرد نار قلبى .

نزلنا من فوق السطح بدون صوت، وكنت فى مقدمة النسوة،

وفتحت عليها الباب. كانت ترقص ،جفلت لمرآى . ربما كان خوفها لشىء بدا فى وجهى، ولمنظر النسوة من ورائى . قلت لها، وأنا أعرف أنها لن تفهم عنى ما أقوله :

ـ عندك ضيوف .

وفتحت مصراع الباب على اتساعه، لتدخل الأخريات .رطنت بلغتها ، تحيينا ، أو تشتمنا ، وضحكت لها نفيسة . ونفخت سيمون مستسلمة ، وأوقفت الموسيقى بضغطة أصبع على الصندوق . وأخذت تطبق أوراقها المفرودة على المنضدة ، واستدارت فجأة ، حين سمعت صوت الباب ، وأم خليل تغلقه .

لم تكن هناك وسيلة للتفاهم معها. أغلقت نفيسة النافذة ، وأحطنا بها ، فدارت حول نفسها باحثة عن مخرج . أمسكنا بها ، فصرخت، وقاومت ،خفنا منها ، فأغلقت فمها بكفى ، وطرحناها على السجادة فى أرض الغرفة ، ورفعنا ذيل القميص الذى ترتديه . لم تكن تلبس تحته شيئاً . وكنا نمسك بها جيدا ، وهى تناضل بكل مافيها من قوة، لتتخلص من ثمانية أيد . وقالت نفيسة :

ـ ألم أقل لكم ؟

وراحت نفيسة تمارس مهمة تطهيرها بالمقص ، ثم بحلاوة العسل الأسود ، لتزيل القذر الذى تحمله بين فخذيها . وشهقت نفيسة ، وقالت لحاتى :

ـ انظرى . ألم أقل لك ؟ .. إنها لم تختتن .

كانت نفيسة ماتزال تكمل مهمتها بالحلاوة ، وسيمون ترتعد بين أيدينا . وطرحت علينا نفيسة فكرة ختانها لسيمون .وتحمست النسوة للفكرة . وقالت حاتى :

ـ ياليت . ما الذى يمنع ؟ لكن .. أخشى أن تفضحنا .

فقالت نفيسة مؤكدة :

ـ لاتخافى . ان تسمعى لها صوتا .

كانت نفيسة قد انتهت من مهمتها ، فأخرجت زجاجة من صدرها ، ونزعت غطاءها ، ففاحت منها رائحة البنج ، وغمست فى الزجاجة قطعة قطن ، أخرجتها من صدرها أيضا ، ثم وضعتها على

أنف سيمون . رأيت ،فى ضوء المصباح عينيها مفتوحتين على آخرها، مليئتين بالفزع. فكرت فى أن أتركها، وأدفع الشكل عنها ،وأوقظها. تصورت نفسى فى مكانها. لكن ،خطر لى أنها تبهج حامد بروحها، وربما أيضا بجسدها(الذى يشبه اللبن بياضا وطراوة) لأنها لم تختتن. وكان جسدها يسترخى تحت أيدينا ، وفمها يتوقف عن المقاومة ، ويتوقف الأنين المكتوم المنبعث من أنفها،وعيناها تنطبقان، وتظلان مواربتين . قلت لنفسى : إن المسألة قد بدأت ، وانتهى الأمر ، ولا ينبغى أن نتوقف الآن . ماحدث حدث ، وعلينا أن نتمه . فحتى لو توقفنا ، لن يقلل ذلك من غضب حامد ، وأكدت لنفسى ، أنه سوف يتكتم الأمر ، حتى لا يفضح نفسه ، ويفضحها .

وأخذت نفيسة تمارس مهمتها بسعادة بالغة ، والنسوة واقفات مستريحات ينظرن إلى مهمة جليلة ، وفى قلق وسرور شديدين . وجذبت نفيسة ذلك الشىء حتى آخره بيد ، وأخرجت باليد الأخرى موساً حادة، كموس الحلاق ، من جيب ثوبها ، وفتحته ، ومسحته فى جانب ثوبها ، ثم ضغطت بجانب السلاح ، وحذبت حد الموس بسرعة ، فانفصل ذلك الشىء فى يدها الأخرى .وتفجر دمها غزيرا.

لم نر مثل هذا الدم من قبل ، على كثرة ماشاهدنا من طهارة للصبيان والبنات .

وأخذت نفيسة تدس كل مامعها من قطن، لتوقف النزف ، لـكن القطن كان يغرق بسرعة فى الدماء المتدفقة من السكينة . ودست نفيسة شالها ، وشال سيمون ، وكل ماطالته يدها ، فى الدم المتفزر . والدم لايتوقف . والقماش يغرق فى بحر من الدم . لطمت حماتى خديها بيديها ، وصاحت :

ـ يامصيبتى .

واصفر وجه نفيسة ، واصفرت وجوه الأخريات . واختلطت أصواتنا المفزوعة ، المرتعبة . وسيمون راقدة ، مستريحة ، غير شاعرة بأى شىء مما يحدث لها ، ويجرى لنا . صاحت فينا نفيسة تنهرنا حتى لا نفضح أنفسنا وطلبت منى أن آتيها بكل مالدينا من بن، وتراب فرن ، وتراب أحمر . وخرجت أجرى متعثرة، أتخبط فى كل شىء ، وركبتاى ترتعدان تحتى .

جئت نفيسة بما طلبت . فأخذت تحفن بكفها وتضع ، على ذلك الشيء : البن ، ثم تراب الفرن ، ثم التراب الأحمر . وانتظرنا . ابتل مسحوق البن ، وتراب الفرن ، والتراب الأحمر . تخضب بالدم الذى كان يتفصد ، ثم توقف . أردت أن نرفعها على السرير ، لكن نفيسة أمرتنا بتركها فى مكانها ، حتى يجف الجرح . عندئذ رأيت منظرا لن أنساه . حماتى استيقظ فيها شيء كان نائمًا . تمسك بالموس ، وتتجه نحو نفيسة ، وتهرب النسوة خارج الغرفة ، وخارج البيت . ونفيسة تتراجع أمامها إلى الخلف ، وهى تقول :

ـ أنا لم أعمل شيئًا . لم أر شيئًا .

واصطدم ظهرها بالباب . وراحت تتحسس فتحته بكفيها من الخلف ، حتى عثرت عليها ، فانطلقت تجرى هاربة من البيت . وكانت أم خليل ماتزال باقية . فقالت لها :

ـ صبرك بالله ياأم حامد . لن يصيبها شر . أمر الله وكتب عليها وعلينا .

واستدارت لها حماتى ، فولت أم خليل هاربة من الغرفة .

وبقيت أنا وهى ، وسيمون . فتحت حماتى النافذة ، وبصقت على الموس ، وطوحت به فى المزارع ، وأغلقت النافذة من جديد ، واستدارت إلى . جذبتنى من شعرى ، وراحت تهزنى لم أقاومها. ليتها تقتلنى الآن . لكنها تركتنى ، واستدارت ، ولطمت خديها وجلست عند رأس سيمون ، تربعت ، ورفعت رأسها ، ووضعتها على فخذها ، وانحنت ، وقبلتها فى جبينها ، وقالت لها بلوعة :

ـ ياحبيبتى يابنتى .

وأخذت حماتى تهتز أماما وخلفا ، وهى تقول لها :

ـ جئت من بلادك ، بقدميك ، لعذابك .

ونظرت إلى غاضبة ، وقالت :

ـ وأنت ؟ لماذا تقفين هكذا ؟ .. لم لم تمنعينى من ذلك ؟ أنا كبرت فى السن ، وأصابنى الخرف . لكن ، أنت ، مازلت شابة ، وعاقلة . هه اعاقلة ؟ ! .. كنت تغارين منها ، أنت ، ونفيسة ، وأم خليل . كلكن . كلكن . أريد أن أبكى ، ولا أعرف . أريد

أن ينزل على داء النقطة ،ولا يأتى . ياللفضيحة يافضيحتك ياستيته . يافضيحتك ياحامد .يافضيحتك ياحبيبى .

كانت حماتى ماتزال تهتز ، وهى تتكلم ، أماما وخلفا ، تقطع قلبى بكلامها ومنظرها ،أكثر مما هو .توقفت لحظة ، وصاحت فى وجهى .

ـ امشى اكسرى بصلة . هاتى كولونيا . فوقيها يازينب .

ذهبت بسرعة ، وكسرت بصلة . وجئت بزجاجة كولونيا ، كانت سيمون قد أهدتها إلى ، مع حقيبة يد ، وعدة فساتين . شممتها الكولونيا . دفقت منها على جبينها ووجهها ، ودلكت لها صدرها ، وعصرت البصلة عند فتحتى أنفها ، فأخذت سيمون تحرك رأسها فى حجر حماتى التى نادتها :

ـ سايمون . . ياحبيبتى .

أنت سيمون . واربت عينيها قليلا . رنت إلى ، كنت فى

مواجهتها. بنظرة خاطفة منطفئة، ثم مالت برأسها جانبا دفعة واحدة، وظلت العينان مواربتين . صرخت :

ـ ماتت . ماتت ياحماتى .

وفقمت من قلبى صوتا داويا . سبتنى حماتى . لاتريد أن تصدق أنها ماتت . حركتها من يدها . تيقنت من موتها . لطمت خديها . لطمت . لطمت ، وهى تهتز أماما وخلفا . ورأس بسيمون مايزال على فخذيها .

المأمور :

كان لابد أن أتصرف فى الأمر على وجه السرعة .

فضيحة ماحدث وأى فضيحة ؟ ! لو كان العمدة أمامى لحظة إبلاغه لى بالخبر ، بالتليفون ، فى البيت ، لضربته بالنار على الفور . كيف يحدث هذا لسيمون المهذبة الحلوة ؟ وفى منطقتى أنا ؟ أية بربرية هذه التى أحكمها ، وعلى أن أعيش فيها ؟ حتى مع الأجانب يا عالم ؟ ومع النساء ؟ هه . . عصفور من الشرق ؟ ! قنديل أم هاشم؟ كيف وصلنا إلى هذا الدرك الأسفل؟ مسكين أنت ياحامد ؟ النداهة نادتك فقطعت بحارا وبلادا ، لتفقد أعز ما تحرص عليه هنا ، فى بلدك .

صحبت الطبيب معى فى السيارة . أبلغته فى الطريق بكل ماحدث . كما رواه لى العمدة . وتركته ليفكر ويتصرف . دار بخاطرى أن أقبض على العمدة ، ومشايخ الدراويش، والخفر ، وأحمد، وأظل أجلدهم جميعاً حتى الموت ، بدون رحمة . لكنى ، إذا فعلت ذلك ، قلت لنفسى ، فأنا أكرر نفس مافعلته نساء الدراويش ، المتشحات بالسواد . سألت نفسى : ما الذى يجعلنا نحقد على كل ماهو جميل ، ونمدمره بأيدينا ؟ الكلوبات التى أحالت ضوء الليل إلى نهار فى الدراويش. وسيمون ؟ مسكينة سيمون ! ! عزيت نفسى بأن ماحدث لحامد ، ولزوجته ، كان بتدبير أمه ، وزوجة أخيه ، وغفلة هذا البغل الذى هو أخوه . ولكن هل يجد حامد عزاء فيما حدث . بقدميه جاء لعذابه الأبدى . لو لم يغادر بلده لما حدث له كل ماحدث . لو لم يغادر باريس ،مستجيباًلنداء النداهة ، لما حدث له كل ما حدث . لو .. لو .. لو . . يبدو لى أننى سأجن .

قلت للطبيب :

ـ ماذا ستفعل ؟

قال لى ، دون أن يدير وجهه نحوى :

ـ ربما تكون حية .

قلت :

ـ وإذا لم تكن ؟

قال فى بلاهة :

ـ ستكون قد ماتت .

سألته مرة أخرى :

ـ ماذا ستفعل ؟ كيف ستتصرف ؟

نظر إلى نظرة باردة ، ولم يقل شيئاً . قلت :

ـ والعمل ؟ السبب الأصل . اسمع ، مهما كان السبب ، لا ينبغى أن يعلن أو يعرف ، أو يخرج من دائرة البندر .

سألنى :

ـ كيف ؟

قلت :

ـ تعرف . أنت طبيب . وتعرف آلاف الأسباب للموت .

ودار بخاطرى أن الحياة نفسها سبب كاف للموت . سألنى :

ـ والعدل ؟

قلت بحزم :

ـ اسمع . لست قاضيا . فكر فى الفضيحة . فكر فى مصيرى ، ومصير كل مسئول فى المديرية ، ومصيرك ، وموقف الحكومة .

قال الطبيب :

ـ وإذا فعلت . من يضمن البلاغات التى يمكن أن ترفع .

قلت :

ـ اسمع . البلاغات ، لو حدثت ، لن تصل إلى جهة ، حتى ولو كانت بالبريد .

قال :

ـ وحامد ؟ .. من يضمن حامد ؟

قلت محيرة :

ـ ربما يستتر . المهم الآن أن تأمر بدفنها ، على وجه السرعة .

عاد يقول :

ـ وحامد ؟

قلت :

ـ سنرسل فى طلبه ؛ بعد أن ينتهى كل شىء .

دخلنا الدراويش . ونزل الطبيب معى، وتبعنى الضابط المعاون والعسكر . تركنا السيارات وراءنا عند القنطرة . كانت الدنيا شديدة الظلام ، فقد غاب القمر قبل ساعة أو أكثر . وجدت الدراويش كلها تعرف ماحدث ، وتضيف عليه ، وكان خلق كثيرون يحيطون بالبيت . أصدرت الأمر بعودة الكل إلى بيوتهم . وأطلقت العسكر والخفراء ، لتنفيذ هذا الأمر بكل شدة ، وضرب كل مخالف بمنتهى القسوة ، دخلت بيت البحيرى . كان العمدة جالسا فى الصالة مطأطىء الرأس . صحت به بغلظة ، فنهض واقفا . رفعت يدى ، وصفعته على

وجهه ، فبكى . رأيت أحمد واقفا فى حالة انهيار . أردت أن أقبض على تفاحة آدم البارزة فى عنقه ، بأسنانى ، وأنزعها له ، لكننى بصقت فى وجهه ، فلم يرفع يده ، حتى لمسحها . وكان الطبيب قد دخل إلى غرفتها . بى شىء يريد أن يراها . لكننى أخشى أن أرى موتها . هى بالذات . وظللت أدور حول نفسى فى الصالة ، حتى خرج الطبيب من الغرفة . وأغلق بابها وراءه ، وقال بعد لحظة ، وهو يحدق فى وجوهنا :

ـ ماتت !!

وراح يكتب ورقة ، ناولها لى قائلا :

ـ هذا تصريح بالدفن .

قلت بصوت عال ، ليسمع الجميع ، الحاضر منهم والغائب وأنا أغمز للطبيب بجانب عينى :

ـ كيف ماتت ؟

قال ببرود بالغ :

ـ ماتت إثر نوبة قلبية ؟ حادة ، ومفاجئة .

كررت فى إثره بصوت مرتفع آمر :

ـ ممم . ماتت بذبحة صدرية . مفهوم .

ثم قلت للعمدة :

ـ هاتوا نجارا ليعد لها صندوقا ، سندفنها الليلة فى مقابر الأسرة .

والتفت لأحمد قائلا :

ـ أتسمعنى ؟ مقابر الأسرة . لكى تذكرها دائما ، أنت ، وأمك ، وزوجتك ، وكل الدراويش . ياغجر .

نطق أحمد ، وقال باستنكار :

ـ صندوق ؟ ودون تغسيل ؟

صحت فى وجهه :

ـ إخرس . .

فخرس على الأثر . وجلست أفكر فيما ينبغى أن أفعله بنفيسة .

قررت أنه لاينبغى أن تفلت من العقاب ، مهما كان سببه المعلن . وأخذت الطبيب جانبا ، وكانت الصالة خالية ، ليس فيها من أحد سوى : أنا ، وهو ، والضابط المعاون ، وجلسنا . فكرت فى المحنة الأليمة التى سوف يواجهها حامد غدا ، ابتداء من غد ، إن بقى فى الدراويش ، وإن هرب عائدا إلى باريس . فكرت أن سيمون قد ماتت ، وأن الطبيب يعرف الموت جيدا معرفته بالحياة ، قلت له هامسا:

ـ قل لى . . ماسبب الموت الحقيقى ؟

كان الطبيب شاردا . فقال لى باضطراب ، والدهشة مرتسمة على وجهه :

ـ نعم . آه . . موتنا ، أم موتها ؟!

(أغسطس ١٩٧٠)

فهـــرس

رقم الإيداع ٥٩٥٢ / ٩٦
I. S. B. N. 977-01-4834-3

مكتبة الأسرة

القراءة للجميع
مهرجان صيف ٩٦
جمعية الرعاية المتكاملة

بسعر رمزى جنيه واحد
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب